ضوء في المجرة

د.أحمد خيري العمري

الذين لم يولدوا بعد

الذين لم يولدوا بعد



الكتـــــاب : الذين لم يولدوا بعد
المـــــؤلـــــف : أحمد خيري العمري
تنسيــق داخلي : سمر محمد
رقـــم الإيـــداع : 2019/8995
I.S.B.N : 978-977-992-005-4

المدير العام: محمد شوقي
مدير النشر: علي حمدي
مدير التوزيع: عمر عباس
00201150636428
لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

سلسلة ضوء في المجرة

الذين لم يولدوا بعد

د. أحمد خيري العمري



إهداء

إلى ه.ب، طبعاً..

بصفته الشخصية أولاً..

وبصفته ممثلاً عن «الجيل»، ثانياً..

من بعيد يأتي ليزورنا، وكل آتٍ قريب. يقطع الوديان والجبال والسهول. يتجاوز الحدود والبحار والمحيطات. يتجاهل التأشيرة والتعرفة الجمركية. لا يلقي بالاً لتقلبات الأوضاع السياسية والتحشدات العسكرية... من بعيد يأتي ليزورنا وكل آتٍ قريب.

ننتظره أحياناً بلهفة، وأحياناً نفاجأ به في غمرة انشغالنا. مرة نفرح به ونستعد لزيارته لنا، ومرة نضيق ونتبرم ونتمنى لو أخرها يوماً واحداً، وإن كنا نخفي ذلك أدباً وتأدباً.

من بعيد يأتي ليزورنا، وكل آتٍ قريب.

لا يخلف موعد زيارته أبداً. لكن موعده يختلف بيوم أو يومين. يأتينا في السنة مرة مثل مغترب مشتاق. فيمكث عندنا شهراً- وأحياناً شهراً إلا يوماً- كما المغتربين المشتاقين لكن المستعجلين، يأتي إلينا محملاً بالحقائب والأمتعة، فنهرول إليها، ولا نكاد نسلِّم عليه ونؤدي الواجب، حتى نلتفت إلى الحقائب، فنبعثر محتوياتها وهداياها الغالية، نتفحصها ونقيم أثمانها، ونتخاصم حول تقاسمها، ونثرثر حول ذلك طوال الوقت، ونصدع رأسه بخصوماتنا.

وعندما يذهب، تكون حقائبه فارغة إلا من مشاكلنا وطلباتنا. لو كان مثل كل المغتربين لأقسم ألا يأتي في السنة القادمة، لكنه لا يفعل ذلك أبداً، سيأتي في كل الأحوال..

رغم شبح الحرب الذي يروح، ويجيء بالقرب من حدودنا، رغم صدودنا، رغم عقوقنا، رغم نسياننا ورغم جحودنا؛ يظل يأتي إلينا ويزورنا..

إنه هناك. لعله الآن في الشارع المجاور، أو البيت المجاور، لعله الآن قد هبط من السيارة محملاً بحقائبه..من بعيد يأتي إلينا، وكل آتٍ قريب.

رمضان على الأبواب، يكاد يطرقها. فلا تفتح له..

***

ليس خطأً مطبعياً.

أقول لك: هذه المرة لا تفتح له..

نعم، هذه المرة عندما يأتي رمضان، لا تفتح له أبوابك. أوصدها جيداً. ارفع مستوى تحصيناتك. زد من الأقفال والمتاريس. اقطع الكهرباء عن جرس الباب.

وأحكم إسدال الستائر. وضع القطن في أذنيك؛ حتى لا تشعر بتأنيب الضمير.

ولا تفتح له.

أقول لك: لا داعي، لا تفتح له.

صدق ما أقول: لا تفتح له.

***

إذا كنت ستفعل به ما فعلته في المرة السابقة، لا تفتح له.

إذا كان سيمر على حياتك كما مرَّ في السنوات السابقة، لا تفتح له.

لا داعي لذلك.

إذا كان سيكون مجرد رمضانٍ آخر؛ مجرد ضيفٍ آخر يزورك كل سنة مرة، ويمكث شهراً ثم يمضي دون أن يترك أثراً، فلا تفتح له.

إذا كان سيكون شهراً أخر تجوع وتعطش فيه قليلاً، ثم تتخم وتمتلئ فيه بطنك كثيراً، فمن الآن أقول لك: لا تفتح الأبواب.

إذا كان سيكون شهراً آخر تستقبله **وأنت تشترط عليه أن لا يشترط عليك**، تستقبله وأنت تقرر أن لا عهود ومواثيق دائمية معه، فلا تفتح الأبواب.

إذا سيكون مجرد شهرٍ قمري آخر، يبتدئ برؤية الهلال وينتهي برؤيته أو عدم رؤيته!

فأقول لك: لا تتعب نفسك ولا تكلفها.. ولا تفتح الباب.

.. أقول لك: رمضان على الأبواب. يكاد يطرقها - فأطرق برأسك، وفكر، قبل أن تفتح الباب أو لا تفتحه.

***

ولأن القضية خاسرة، إذ إنه سيتسلل في كل الأحوال من الثقوب والمسامات وفتحات الشبابيك، وربما مواسير الماء، فإني أقترح عليك اقتراحا آخر.

افتح له، ولكن ليس بالضرورة الأبواب.

في كل مرة كنت تستقبله فيها، كأي ضيفٍ آخر، كنت تفتح له الباب.

أقول لك: ما دام الأمر سيان، فلا داعي، إنه سيدخل ويتجاوز الأبواب في كل الأحوال، ولن يبالي إذا وجدها مغلقة بإحكام أو مشرعة مفتوحة على مصاريعها.

ولن يعاتبك على أصول (الاتيكيت).

إنه لا يريد منك أن تفرش له السجاد الأحمر، أو تضيء له الأنوار الساطعة في الخارج.

إنه سيدخل في كل الأحوال.

فافتح له فتحاً مختلفاً هذه المرة.

وليكن فتحاً مبيناً.

* * *

في كل مرة يستعد الناس لاستقباله يفكرون أول ما يفكرون في بطونهم، وموائد الطعام والولائم التي ستمتد فيه، إفطاراً وسحوراً.

والاستعداد الأول - المعروف جداً- والذي يبدأ قبل دخول الشهر بفترة، هو التسوق لاحتياجات المطبخ الذي يؤدي عادةً إلى ارتفاع الأسعار.

لا أريد الخوض في هذا الموضوع رغم أنه منزلق شديد الإغراء، لكن أليس ذلك ما يحدث عادة، **ألا يفتح الناس جيوبهم ومحافظهم** لرمضان أول ما يفعلون؟

أليس الشهر مناسبة لاستهلاك - أو على الأقل إعداد - أكبر كمية ممكنة من أنواع الطعام؟

الوعاظ والخطباء الذين يتحدثون عن الصيام باعتباره ليس جوعاً فحسب، يثيرون استغرابي واستفزازي.لا جوع في رمضان، خصوصاً في سنوات كهذه.

الناس لم تعد تجوع في رمضان، إنهم يمتنعون قليلاً عن الطعام، في عملية تكاد تكون أشبه بتحفيز واستثارة لهم لهجوم كاسح لاحق على الطعام في موعد الإفطار.

لذلك، لا جوع حقيقياً في رمضان. الناس تشتهي الطعام طوال فترة الصوم، ثم تهجم لتلتهم عندما يحين موعد الإفطار.

***

وبعد ذلك الهجوم الكاسح، والملحمة الهائلة، يستلقي الناس وقد فقدوا قدرتهم على الحراك، وبطونهم تقرقر من هول الاقتحام الذي حصل.. لقد هدهم الشبع أكثر بكثير مما آذاهم الجوع.

المنزلق شديد الإغراء كما ترى، لكني لا أريد أن أنزل إلى دون هذا المستوى.

رغم أن فيه طبقات أدنى وأدنى..

* * *

الناس كما ترى تفتح لرمضان أبوابها..

أول ما تفتح جيوبها ومحافظها، وأحياناً خزائنها. وهذا معلوم، لا شيء يمكن أن يهز تقاليد الطعام العتيدة في هذا الشهر..

ثم إنها تفتح أشداقها وأفواهها. وهذا مفهوم طبعاً.

ثم إنها وبعد ذلك تفتح أعينها، على اتساعها، في اجترار ما تبثه القنوات من مسلسلات وبرامج وتسالٍ رمضانية، ويحدث ذلك في أثناء عملية فتح للأفواه أخرى تشمل طحن المكسرات التي تزدهر في رمضان.

* * *

كما ترى، الناس يفتحون لرمضان فتوحات مختلفة..

لكني أتحدث عن فتح آخر، عن فتح كبير ومبين.

يا صديق..

في قلبك مغارات ومغارات.

وفيه أيضاً كهوف مغلقة، وأرض مجهولة وبقاع سرية.

في قلبك أماكن لا يعرفها أحد، ولا أنت، بل أنت ذاتك لا تعرفها.

و فيه كواكب ومجرات لم تطأها قدم إنسان.. وفيه غرف سرية لا يعرف مداخلها أحد..

و فيه صحارى وغابات عذراء، وفيه قارات مجهولة غاطسة تحت قاع البحر، وفيه كواكب ونجوم لم يرصدها (تلسكوب) بعد، ومجرات لا تزال تتوالد، وتتراكض في كون متمدد باستمرار..

وفيه أهم من ذلك كله، وقبل ذلك كله، أنت: حفنة من هموم ومشاكل، عقد ومخاوف، هواجس وذكريات..

ماضٍ مليء بالمتاعب، ومستقبل ملبد بالغيوم...

وفيه أيضاً الكثير من الدخان؛ دخان السجائر التي ينفثها قلبك باستمرار، حتى صار يبدو مثل محرك معطوب..

وفي قلبك قفل، وعلى القفل متراس ومزلاج..

وعليه أيضاً بيت عنكبوت، وعش حمامة..

لم يقترب من القفل أحد.

* * *

وأقول لك: افتح لرمضان قلبك.

اترك عمليات الفتح التقليدية الأخرى، وهذا (الرمضان) افعل شيئاً استثنائياً وافتح قلبك لرمضان.

دعك من فتح الجيب والفم والعين..

أقول لك افتح قلبك لرمضان. التفاصيل الباقية غير مهمة..

انظر، مدّ يديك نحو القفل، دع هلاله يكون المنجل الذي يمزق بيت العنكبوت، لا بأس إن طارت الحمامة وارتعبت.

ارفع بيدك المزلاج الضخم - سيصدر صريراً مرعباً- وربما يكون ثقيلاً قليلاً، اجمع قواك واستجمع أعصابك وارفعه..

ومدَّ يدك نحو القفل وافتحه..

دع رمضان يدخل.

* * *

رغم أنك تصوم منذ قرون، دعه يكون رمضانك الأول.

* * *

منذ فترة طويلة، وعبر السنوات المتعاقبة، ومع كل رمضان يهل هلاله، كنت ألاحظ باستغراب شديد، أن الفقهاء والخطباء والوعاظ على المنابر وفي البرامج التلفازية والإذاعية، يعاملون رمضان كما لو كان أول رمضان يمر على المسلمين، أو كما لو أن أحكام الصيام قد فرضت للتو. كل رمضان يعاد الحديث نفسه عن أحكام الصوم وشروطه وأعذاره، وكل التفاصيل الأخرى التي تعاد وتكرر؛ ابتداء من نية الصيام إلى زكاة الفطر.

وكان ذلك يثير استغرابي، هذا التكرار والعجن في أمور يفترض أن تكون من المعلومة بالضرورة، كما يقولون..

كنت أعزو ذلك في البداية إلى الغباء (غباء الخطباء أو غباء الناس عامة، لا فرق)، أو إلى قلة الموضوعات التي يجيدون التحدث عنها.. فيكون رمضان وأحكامه وسيلة لملء الفراغ، لا أكثر.

ثم لانت نظرتي بالتدريج، ربما كانوا يكررون هذه المعلومات من أجل الناس الجدد الذين يصومون لأول مرة.

ثم أخذت أفكر أنهم ربما يفعلون ذلك من أجل التذكرة، والذكرى تنفع المؤمنين.

ثم فهمت! وصلت لمعنى الحكمة الخفية التي ربما كان هؤلاء الخطباء يجهلونها شخصياً عندما يتحدثون عن رمضان كما لو أنه أول رمضان يمر على المسلمين..

يحدث ذلك، ببساطة، لأنه كذلك فعلاً.. أو على الأقل هو كذلك بالنسبة إلى غالبية الصائمين؛ كانوا يصومون طوال سنوات وربما حريصين على ذلك، لكن رمضان لم يدخل قلوبهم، لم يدخل أعماقهم..

كان صيامهم مرتبطاً بالعادات والتقاليد والطقوس الجماعية وحتى الفلكلور، أكثر مما كان مرتبطاً بمعنى رمضان، وبحكمة رمضان..

دخل رمضان جيوبهم فأفرغها، ودخل أشداقهم الممتلئة بالحلوى والمكسرات الشهية، ودخل عيونهم فأمتعها بالمسلسلات والفوازير البهيجة..

ولكن العنكبوت والحمامة ظلّا على القفل الذي على قلوبهم..

لم يدخل رمضان قلوبهم.

ولذلك وفي كل سنة، إذا ما دخل رمضان، حقاً سيكون أول رمضان.

***

كثيرون - كما نعرف جميعاً ونلاحظ - من أهل الكبائر والمعاصي، حتى أشدها وأعظمها يصومون في رمضان، وربما أيضاً يصلون، ثم إنهم، كأمر واقع، يمتنعون عن معاصيهم وكبائرهم تلك، طوال هذا الشهر.

وهذا أمر شائع جداً. وأخشى أن يكون هو الغالب والأعم.

في الحقيقة، لا تستطيع أن تبذل أي جدل في ذلك. لا أحد يمكنه أن يمنع أهل الكبائر من صيام رمضان أو من الصلاة فيه، ولا أحد يمكنه أن يغلق أبواباً فتحها الرحمن.

المهم هو ما يلي ذلك، بعدما ينقضي الشهر، وربما في ليلة العيد، هل سيعود هؤلاء إلى حياتهم الماضية ومعاصيهم وكبائرهم كما لو أن شيئاً لم يكن؟ هل سيصدق عليهم إبليس

ظنه؟ هل سيتمكن من هدم كل ما بنوه في شهر، في يوم واحد بعد هذا الشهر؟ معصية واحدة، كبيرة واحدة؟

إذا حدث ذلك، وأخشى أن أقول: إنه كثيراً ما يحدث، فلا فائدة.

لا أخشى من أن أقرر: لا، لا لم يكن رمضان إذن.

رغم أنهم صاموا، امتنعوا عن الأكل والشرب، وصلّوا، وربما ذهبوا للتراويح، لكن..

لو كان رمضان حقاً، لما عادوا أدراجهم. رغم أن الصداع أصابهم بسبب عدم شرب الشاي أو بسبب عدم تدخين سيجارة.

رغم الولائم والعزائم، والأكل والتجشؤ بعده، والتخمة التي تبعث على الكسل، والمسلسلات التي تبعث على الملل، والأشداق والأفواه التي تتحرك بلا كلل..

رغم ذلك، ورغم التقويم الهجري المعلق هناك، ورغم أنهم تبادلوا التحيات والتهاني في بداية الشهر وفي نهايته..

لكن، مع الأسف، ليس رمضان.

ربما أي شيء آخر، وربما محسوب في كفة حسناتهم.

لكن، ليس رمضان.

* * *

لو كان رمضان، لكان حصل شيء آخر لهم.

لو كان رمضان قد دخل في قلوبهم، لما عادوا أدراجهم إلى أوضاعهم السابقة (كما كنت!).

لو كان رمضان، لقربهم خطوة أكثر إلى الله، لامتنعوا عن المعصية المعينة، أو حاولوا التخفيف من الكبيرة الأخرى، أو لحاولوا المواظبة على الصلاة.

لو كان رمضان حقاً، لتمسكوا بذلك الحبل الذي ألقي إليهم؛ فهو مصمم أساساً ليمسكوه طوال الوقت، لينقذهم في دنياهم وآخرتهم.

لكنهم - ولأن الغفلة وباء مستعص- فإن الحبل يلقى إليهم، فيلعبون، ويلهون، ويقضون الوقت في شده وجره..

إلى أن تأتي الساعة، فيلتف حول أعناقهم، ويخنقهم، يغرقهم بدلاً من أن ينقذهم..

ولو كان رمضان حقاً، لكان هناك كلام آخر.

***

قلت لي مرة، وفي البدء جداً جداً: إنك كنت تصوم وتصلي في رمضان، ولكن بعدها لاشيء. وكما كنت.

سألتك وقتها بسذاجة - ولم أقصد جواباً معيناً، فقط للاستمرار في الحوار- : لماذا؟..

أجبتني ببساطة - جواباً لعلك لم تدرك كم هو عميق - قلت لي، ولا أزال أذكر النبرة والملامح وكل شيء : **شيطاني قوي.**

ولعلك لم تدرك كم هو صحيح ما قلته. صحيح وعتيق. فمنذ البداية كان ذلك الرهان، ومنذ البداية كان ذلك القسم، ومنذ البداية وحتى الآن الناس يسقطون، وبعد رمضان بيوم، يصدق عليهم إبليس ظنه.

«شيطاني قوي» قلت لي..

وسكت أنا.

عندما يتعلق الأمر بالقوة والضعف فالمسألة نسبية. إما أن الشيطان قوي، أو أن الآدمي ضعيف.

ولو كان رمضان حقاً قد مرّ عليك ودخل هناك، لهمس شيطانٌ ما لزميله: «إن آدمي قوي..»فيا صديقي الذي لم يعد ضعيفاً، دع شيطانك يقول: إن آدمي قوي!.

***

وقلت لك أنا مرة، ولا تزال ذاكرتي تحتفظ بكل التفاصيل: فاتنا رمضان..

كنا هناك في الشارع العام، وطال حوارنا حتى انتصف الليل وفرغ الشارع وذهبت السيارات، أذكر التفاصيل - لكن لا داعي لها - كنت تعاتبني بمرارة عما اعتبرته قسوة مني (واعتبرته أنا حرصاً عليك) وذكرت لي، لتدلل على خطئي،

وقوفك بصمود بوجه غواية معينة، غواية يصعب على من كان في وحدتك ووضعك وماضيك أن يرفضها، ويغلق الباب بوجهها.

لكنك فعلت.

وتخيلتك هناك وأنت صامد. تعود ليلاً إلى شقتك وحيداً. وتأكل وحيداً.

وتفكر بكل ما كان وحيداً. ثم تلف رأسك لتنام وحيداً.

ومع ذلك استطعت أن تفعلها: وصمدت!

أجهش قلبي بالبكاء وقتها. لم تسمع صوته. لكن دمعت عيناي. ثم قلت لك شيئاً كان يبدو أن لا علاقة له بالأمر..

قلت لك: فاتنا رمضان..

لقد فكرت وقتها، إن خطواتك (السريعة أصلاً) نحو الله، كانت ستكون أثبت وأقوى وأجمل وأروع، لو أن رمضان كان هناك..

فكرت أنك تملك في داخلك فطرة هائلة - رغم ركام الماضي ومعاصيه وتعقيدات الحاضر وتقاطعاته - تملك قابلية هائلة للهداية، قابلية أصيلة ونقية لم تكن تحتاج إلى الكثير لتنجلي وتظهر على السطح.

في أعماقك كان هناك مارد مؤمن، لم يكن يحتاج إلى الكثير ليخرج من قمقمه.

ولو كان هناك رمضان، والقصة كلها بدأت بعده بشهر كما تذكر، لكان ذلك أثبت، وأيسر، وأروع، أو كذلك ظننت.

وقتها ما كنت أتصور أنك ستبقى إلى رمضان القادم.. لذلك قلت بحسرة وحزن عميقين، ما كان يبدو أنه لا علاقة له بما قلته. قلت لك: **فاتنا رمضان..**

هززت رأسك أنت موافقاً. ولم تعلق.

هناك في الشارع العام، وقد خلا من المارة والسيارات قلت حتى كادت أن تختفي بالتدريج، حصلت هذه الحكاية..

لكن، فوق هناك، عند الله في عليائه، كانت هناك خطة أخرى، وكان رمضان القادم ينتظرنا..

رمضان الذي - هذه المرة - يجب ألا يفوتنا.

* * *

وكذلك أشعر أن العدّ التنازلي قد بدأ فعلاً، وأن الوقت قد بدأ يدركني (يدركنا!) وأن علي أن أستجمع كل كلماتي وكل أفكاري وكل هواجسي ووساوسي ومخاوفي لأركزها في حقنة واحدة؛ يكون موعدها في رمضان..

نعم، أشعر أن العدّ التنازلي قد بدأ، وأن رمضان الذي على الأبواب (يكاد يطرقها) هو الأخير لنا معاً، وأن رمضان الذي يليه، سوف يزورنا كل واحد على حدة - في قارة مختلفة - (هذا إذا فعل أصلاً)..

العدُّ التنازلي قد بدأ، ورمضان على الأبواب. وتكات العداد تكاد تنفجر كالقنبلة الموقوتة في أعصابي..

* * *

إنه رمضان إذن.

ولأنه كذلك، فأبواب الجنة - التي تمتد من الشام إلى اليمن - قد فتحت، وأبواب جهنم - التي لا أعرف بالضبط أبعادها - قد أغلقت.

والشياطين سلسلت وصفدت.

ولأنه كذلك فإنه فرصة عظيمة للتذوق.

* * *

لا، لا أسخر من هؤلاء ثانية. ولا أقصد الاستفزاز والاستهزاء (رغم أن الفرصة عظيمة!).

إنه فرصة عظيمة للتذوق فعلاً، ولكن ليس للموائد الممدودة طولاً وعرضاً وعمقاً. ليس للحلويات الرمضانية ولا للمقبلات والمشهيات التي يتقن مجتمعنا اجترارها، وتتفنن نساؤنا في إعدادها.

ليس لأنواع الحساء التي (رمضان ليس رمضاناً من دونها) ولا للمخللات التي لا بد من وجودها كطبق ضروري ولا غنى عنه.

ليس لألوان اللحوم التي تنصب. بيضاء وحمراء وما بينهما. وطرق طهوها المختلفة وأنواع حشوها المتنوعة.

ليس لكل تلك السوائل المختلفة ألوانها، طازجة ومصطنعة، التي يفترض أن تمدنا بسعرات هي من لزوم ما لا يلزم.

ليس لكل ذلك الهدر الهائل - في الوقت والمال والصحة والروح - المشرعة راياته من أجل التقاليد الرمضانية العريقة.

نعم، رمضان فرصة عظيمة للتذوق. ولكن عن شيء آخر أتحدث.

* * *

يقولون: من ذاق عرف. ومن عرف اغترف!

* * *

رغم الأبواب المفتوحة، والأخرى المسدودة. رغم السلاسل والأغلال.

لا أجد فيه غير أنه فرصة للتذوق.

كل تلك الأبواب المشرعة الممتدة على خطوط الطول والعرض. كل تلك الأخرى المغلقة، والسلاسل وهي تصفد الشياطين.

لا أجد فيه سوى أنه فرصة للتذوق.

كل ذلك الأجر. كل تلك المغفرة. كل تلك الحسنات: لا أجد فيها سوى أنها طعم أعد من أجلك، لكي تتذوق فقط! نعم. فقط. رغم أن هذا الـ (فقط) كثير - لو كنتم تعلمون.

* * *

أكرر: من ذاق عرف. ومن عرف اغترف!.

ولأنه يحبك. ويريدك أن تبادله حباً بحب..

ولأنه يعلم أنك تجهل كم هو رائع حبه، وهو العليم بما تعلم وما تجهل.

ولأنه يعرف أنك لا تعرف شيئاً، وأنك حائر وضال وخائف مثل طفل خجول في أول يوم له في المدرسة.

ولأنه خبير بأنك تسرف في مشاعرك في الاتجاه الخطأ، وأنك تقضي عمرك - أحياناً - في الأهداف الخطأ.

ولأنه يعرف أنك تحتاج إلى من تحبه، كما تحتاج الماء والهواء - وربما أكثر - وأن حاجتك إليه موجودة في أعماقك حتى لو كنت تجهل وجودها..

ولأنه يعرف أن حاجتك هذه، ستضيعك إن لم تشبعها؛ بالضبط كما تفعل كل الحاجات الأخرى، وستتمرد عليك إن لم تجبها، وستتركك في مهاوٍ ومهالك إن أنت لم تسكتها. فإنه يريدك أن تشبع هذه الحاجةَ إليه في أعماقك..

ويحدث ذلك كله - أول ما يحدث، وأكثر ما يحدث - في رمضان.

عندما يجعلك تتذوق قليلاً.

* * *

لنتأمل فيما تعودنا أن نسمعه، دون أن ننتبه له..

في رمضان هناك موسم تنزيلات هائلة وعظيمة على كافة البضائع وبكافة الأنواع.

هناك المغفرة. هناك الأجر الهائل. هناك العتق من النار. هناك الحسنات التي تجازى بعشرة أضعاف وأكثر مما لو قدمت في أي شهر آخر. هناك كل تلك الفضائل الأخرى التي تُدخل الجنة وتُخرج من النار، بأقل من القليل من الأعمال..

حسناً، نعرف ذلك كله. لكن ما الأمر بالضبط من وراءه؟.

لقد تعودنا سماعه ومعرفته. لكن لماذا يحدث ذلك بالضبط؟ لم نسأل.

لو حدث الأمر مع أي بضائع أخرى - دونما تشبيه - لشككنا ولثارت تساؤلاتنا. لو دخلنا أي متجر، ووجدنا أن أسعار بضائعه قد أنزلت إلى العشر أو أقل، ألن نتصور أن هناك شيئاً ما في الأمر. البضاعة كاسدة. مضروبة. مشاكل في الخزن. منافسة على الأسعار. إلخ؟.

أليس كذلك؟.

لكـن معـه. وعندمـا يفعـل مـا يفعلـه ـ في رمضـان. فإننـا لا نتسـاءل. إنـه غفـور رحيم كـريم. وتلك صفاته التـي تطبعنا على أن نقبلهـا كمـا هـي.

إننـا لا نقلب ـ في البضاعـة، ولا نحـاول أن ندقـق لكـي نعـرف مـا الأمر من وراء هذه التنزيلات.

لكن، فلنحـاول أن ندقق قليلاً ـ في الأمر.

إنـه غفـور ورحيـم وكـريم. ولأنـه كذلـك فإنـه يمنحنـا مغفرتـه وكرمـه دونمـا حـدود. ـ في رمضـان خصوصـاً، أكثـر مـن أي وقـت آخـر.

نعم. هذا مفهوم.

لكـن، مثـلاً، لـو أننـا خرجنـا مـن رمضـان ونحـن عتقـاء مـن النـار وقـد غفـر الله لنـا مـا سـبق مـن ذنوبنـا، ثـم عدنـا كمـا كنـا بالضبـط، كبائـر وكـوارث ومعـاصٍ ومصـائب، وطريـق النـار مرة أخـرى.. مـالـذي سيكون قد حـدث بالضبـط؟.

لا شيء. سننتظر إلى رمضان القادم، وهكذا دواليك.

أي شـخص يمـوت ـ في الفتـرة بـين رمضانـين ـ في هـذه الحالـة، سـيكون مصـيره مظلمـاً جـداً، وتعسـاً جـداً.

لا ينسـجم ذلـك مـع صفـات المغفـرة والكـرم والرحمـة، التـي اتفقنـا أنهـا السـبب ـ في موسـم التنزيـلات الرمضانيـة.

هناك خطأ ما في الموضوع..

لنحاول مرة أخرى.

* * *

عندما تزور متجراً ما، فيحاول صاحبه أن يغرقك بلطفه ومودته، ويبالغ في إكرامك، فيحسم لك من السعر، ويبالغ في ذلك، ويهديك قطعة من بضائعه مجاناً، ويجلب لك كرسياً لتستريح عليه، وينادي على صبيه ليجلب لك كوباً من الماء البارد.

عندما يحدث ذلك، فإن هذا السلوك سيجذبك ويغريك، حتى لو كانت دوافعه مكشوفة: إنه يريدك أن تتبضع منه باستمرار، يريدك ألا تذهب إلى أحد سواه.

لا مشكلة في ذلك. ما دامت بضائعه جيدة، وأسعاره متهاودة، ومعاملته لطيفة، لن تذهب إلى أحد سواه بل ستدل الناس عليه.

ذلك ما يحدث أيضاً. بدون تشبيه، طبعاً.

* * *

وعندما يعطيك أحدهم هدية، وأنت لا تكاد تعرفه، فإن هدفه واضح طبعاً؛ إنه يريدك أن تتعرف عليه، يريدك أن تقوي علاقتك به، يريد أن يلفت انتباهك إليه؛ يريد منك أن تحبه..

لا تصدق أن هديته إليك مجانية. لا، ليس بالضرورة أنه يريد أن تردها إليه هدية أخرى، مادية، لكنه يريد أن يجذبك إليه، أن يحببك فيه، يريد منك أن تذهب إليه..

ذلك ما يحدث أيضاً. بدون تشبيه!.

* * *

الطعم في الصنارة. هذا هو!.

* * *

لأنه يريد منك أن تمشي إلى شبكته بخطى ثابتة، فإنه يضع لك الطعم في الصنارة.

في رمضان تحديداً..

ومن ذاق الطُّعم، عرف الطَّعم.

ومن ذاق عرف، ومن عرف ......

* * *

الطعم في الصنارة. شهر واحد في السنة، من أجل أن نعرف الطعم الذي من الممكن أن نتناوله طيلة السنة.

الطعم في الصنارة. شهر واحد في السنة وبتسهيلات غير مسبوقة؛ من أجل أن نعرف ما سيفوتنا ما لم نغترف طيلة أيام السنة.

إنه الاستدراج الجميل. إنه الفخ الرائع.

سيقول لك: اعبدني الآن في هذا الشهر وأبواب الجنة مفتوحة من أجلك، وأبواب النار أغلقت حتى لا تخيفك، والشياطين قد صفدت حتى لا تشوش عليك، وسأغفر لك كل ما عملت من ذنوب، وأعتقك من النار وأدخلك الجنة.

وستطمع. بديهي أن تطمع، شهر واحد في السنة مقابل السنة كلها؟.

بل وحتى العمر السابق كله؟ الصفقة مغرية، بل شديدة الإغراء. ستقدم عليها بالتأكيد، وربما ستقول لنفسك أو لشيطانك المقيد بالأغلال: **شهر واحد فقط ثم نعود كما كنا بالضبط. لن يتغير شيء بيننا، شهر واحد فقط أعبده ثم أعود لك..**

وفي هذا الشهر – وعلى الرغم من اتفاقك مع الشيطان – سيكون الطعم في الصنارة في انتظارك..

ويحدث كثيراً أن تذوق الطعم، فيروق لك، ويعجبك، وتريد المزيد، والمزيد..

وتعلق الصنارة.

* * *

وإذا لم تعلق الصنارة في رمضان، فمتى يا ترى؟.

* * *

نعم، رمضان فرصة عظيمة للتذوق. مناسبة لاستعراض لذائذ مختلفة وحلاوات متنوعة..

إنه يجر رجلك إليه. المغفرة فخ رائع. الأجر العظيم استدراج متقن. ستذهب إلى الفخ وأنت لا تدري بالضبط ما سيحدث بعدها، وفجأة سيعجبك الأمر وستتعلق به بالتدريج..

وعندما ينتهي موسم التسهيلات الرمضانية، ويهل هلال العيد، ستحاول أن تعود لاتفاقك مع الشيطان – الذي فك أسره مع هلال العيد – لكن ستجد خيوطاً وحبالاً تشدك إلى الجهة المعاكسة، ستجد أن الأمر لم يعد أبداً كما كان قبلها..

ستحس كما لو أن رمضان قد غير أقفالك، وعندما رجع الشيطان بمفاتيحه القديمة لم يستطع الدخول إليك..

ستحس كما لو أن رمضان قد أسقطك في شبكة، اصطادك بها وأنقذك من ذلك المستنقع الآسن الذي كنت قد غرقت فيه..

الطعم في الصنارة. استدراج جميل وفخ رائع..

ولماذا بالضبط يفعل ذلك؟. ها نحن ندور دورة واسعة ونعود لنقطة البداية نفسها، لأنه يحبك. **لأنه يريدك أن تبادله الحب نفسه. لأنه يريد أن تذهب إليه، إنه يستطيع طبعاً -إن شاء -أن يسلكك على طريقه وأنت مكب على وجهك..**

لكنــه يريـدك أن تذهـب إليـه وأنـت تمشـي - سـوياً- علـى صـراطٍ مسـتقيم.

إنه يريدك أن تذهب أنت إليه بقدميك.

* * *

ليس هذا ما يحدث بالضبط. لكنه ما يجب أن يحدث.

إنه الهدف والحكمة من رمضان.

رمضـان ليس من أجل رمضـان. رمضـان مـن أجـل بقيـة السـنة.

* * *

من ذاق عرف......

* * *

ومـن الأشـياء التـي يقدمهـا لنـا رمضـان لنتذوقهـا، فنعرفهـا، ونغـترف منهـا (سـواء في رمضـان أو فيمـا بعـده..): الصـلاة.

وهـو يقدمهـا لنتذوقهـا بطريقـة عرضيـة جـداً؛ بحيـث تبـدو أنها غير مقصودة البتة. وهذا من تمام الاستدراج، ومن روعة الفـخ المنصـوب بإحكام..

رمضـان كمـا هـو معـروف للعامة وللنظرة المتسـرعة، هو شـهر الصيام.. لكن الذي يحدث، أن الاسـتدراج يكون نحو الفريضة الأخرى: الصـلاة..

ويحدث ذلك كما قلت: بطريقة عرضية تماماً. شكلها الظاهري أنها غير مقصودة.

الناس، عامة الناس. من أصحاب المعاصي والكبائر، أولئك الذين لا يصلون، سيجذبهم رمضان بفخه من الجهة التي تهمهم: المغفرة والعفو.

إنهم يريدون أن يصفر العداد. عداد الذنوب والمعاصي. ورمضان فرصة، فلينتهزوها.

لا مشكلة في ذلك. سيصومون..

ولكن، ومن أجل أن تُستغل الفرصة تماماً، دون أن يترك مجال لضياعها، فإنهم بالإضافة إلى صومهم: سيصلون.

صلاتهم هنا - هي في الحقيقة - من أجل الصيام، صلاتهم هنا هي بطريقة عرضية تماماً، غير مقصودة لذاتها: إنها من أجل رمضان. من أجل ألا يُحبط رمضان. من أجل ألا تضيع الفرصة.

سيصلون، إنه رمضان، ولا ينفع صيامه دون الصلاة فيه.

ورغم سذاجة النظرة وانتهازيتها الواضحة، إلا أنها صحيحة إلى حدٍّ بعيد: لا ينفع شيء- ليس الصيام فقط - من دون الصلاة.

في هذا العالم كله، كل الأعمال التي يستطيع ابن آدم أن ينجزها، ويتقنها ويحسن فيها. كل ما يمكن أن ينتج عنها من خير، من مساعدة للناس وتخفيف لآلامهم ومعاناتهم.

كل ذلك، مهما علا شانه ومكانته دنيوياً، سيكون - في النهاية- مثل **جثة منتفخة لحيوان نافق.. إذا لم يكن هناك صلاة..**

الصلاة هي ذلك الحد الفاصل الذي لا حياد عنه. الذي لا مفر منه إذا لم تكن تريد لأعمالك أنتُحبط لتصير مثل جثة حيوان نافق..

الصلاة هي ما لا غنى عنه، ما لا نقاش فيه، ما لا يمكن لمجادل أن يجادل فيه.

ولذلك، حتى أولئك الذين لا يصلون - كسلاً وهزلاً وضياعاً وتخبطاً- فإنهم عندما تحق الحقيقة ويضعون أنفسهم على المحك، ويصومون رمضان، طمعاً في موسم المغفرة، فإنهم يصلون، في إقرارٍ عملي منهم بأنه لا ينفع شيء من دون الصلاة.

إنه الاستدراج. إنه الفخ المنصوب بإحكام.

رمضان ليس من أجل الصيام. إنه - قبل ذلك - من أجل الصلاة.

* * *

يقودك إقرارك العملي (الذي لم تخبر نفسك به) الذي مفاده أن لا شيء ينفع من دون صلاة.. إلى أن تؤدي خمس صلوات كل يوم لمدة شهر كامل..

وذلك معناه، أنك ستؤدي أكثر من خمسمئة ركعة. من أجل صيام 30 يوماً..

خمسمئة ركعة!.

و يعني ذلك ألف سجدة!

لا أستطيع هنا إلا أن أقف. يجب أن أقف. لابد أن أقف..

عندما تسجد له ألف مرة، عندما تضع رأسك -أكرم وأهم ما عندك- في الأرض من أجله، عندما تنزل بطولك وعرضك وكل كرامتك وكل اعتزازك بنفسك.. وتذهب إليه هناك في المكان الأقرب..

ألف مرة ستنزل إليه. ستترك تكبرك وكبريائك وأوهامك ومشاعر النقص في داخلك، التي تجعلك مثل ديك منفوخ..

ألف مرة، ستتذلل إليه، وتطلب منه، وتنزل هناك لتدخل عليه..

ألف مرة، ستكرر اسمه، وتسبحه، وتمجده، وتنزهه، وتمتدحه بمختلف الأسماء والصفات التي يمتلكها.

حتى لو لم تكن تقصد شيئاً من ذلك كله، حتى لو لم تكن تفقه ما تقول، حتى لو كنت تصلي فقط من أجل الصوم، بعد ألف مرة، لا بد أن يترك ذلك أثراً في قلبك..

بعد ألف مرة، وحتى لو لم تكن تقصد شيئاً، لا بد أن تترسب في داخلك مشاعر وأحاسيس ما كانت في بالك في أول يوم من رمضان، يوم بدأت بالصلاة من أجل رمضان فقط..

لكن بعد ألف مرة، وكما لو كان الأمر أشبه بالتنويم **المغناطيسي:** لقد بدأت تحب ذلك..

حتى لو كان الأمر لا يزال ثقيلاً على نفسك: لقد بدأت تتعود ذلك.

أترى؟

إنه الاستدراج الجميل والفخ الرائع، إنه الطعم في الصنارة.

* * *

لا يحدث ذلك على الدوام. لكنه الشيء الذي يجب أن يحدث!.

* * *

الناس الذين يسكنون بالقرب من الأنهار، على شواطئها المباشرة تحديداً، تنشأ بينهم وبينها علاقة خاصة من نوع مميز جداً.

بالتدريج ومن دون أي إعلان صاخب عن ذلك، يصير النهر واحداً من أعز أصدقائهم. بل ربما أعزهم إطلاقاً، حتى دون أن يدركوا ذلك أو يعوه بشكل واضح.

الذين يعيشون على النهر يتفهمون ذلك. وزوارهم – الذين يقيمون بينهم بشكل دوري، كما قضيت شطراً من صغري – يعرفون ذلك ويميزونه.

فالنهـر يكـون دومـاً هنـاك بالنسـبة إلى هـؤلاء. إنـه يصبـح عليهم وهـم يصبحـون عليه، يتنـاول معهم إفطارهم، ويشاركهم في خبزهـم، ويتنـاول معهـم الشـاي وأحيانـاً القهـوة، يسـمع لهمومهـم ومشـاكلهم، ويسـاهم في التخفيـف مـن حسـراتهم، ويسـاعدهم - بصمتـه الدائـم والمسـتمر - علـى أن يتكلمـوا، ويخففـوا مـن الأثقـال التـي في صدورهـم.. والتـي لا يسـتطيعون أن يكشـفوها.

إنـه هنـاك: صديـق الأرامـل والعجائـز والأطفـال، وأحيانـاً العشـاق. إنـه يهيـج فيهـم ذكرياتهـم - رغـم أنـه لا يتكلـم قـط - ثـم يسـكّنها بسـكوته. ومـن ثـم يمضـي، رغـم أنـه يظـل موجـوداً هنـاك..

لا، ليس كابـن عمـه الأكبـر منـه: البحـر. البحـر مختلـف. هيـاج وغضب. ثورة وعظمة. مدّ وجزر. حياة وموت.

أمـا النهـر فهـو وديـع وهـادئ، يـكاد أن يكـون مسـالماً جـداً، لا يـكاد يسـتطيع أن يؤذي أحـداً. إنـه صديـق عزيـز، يربـت علـى كتفك ويواسيك، ويأتي لك بكوب من الماء عندما تشرق بالبكاء أمامه.

عظمـة الله وقدرتـه وجبروتـه تتجلـى ربمـا في البحـر أكـثر. لكـن لطفـه ورحمتـه وحكمتـه تتجلـى في النهـر بشـكل واضـح.

يذكـرك النهـر بأساسـيات مهمـة في الحيـاة. كل نقطـة فيـه لا تشـبه نقطـة أخـرى، ومـع ذلـك فهـي متماثلـة معهـا تمامـاً، بشـكل أو بآخـر.

كل نقطة فيه تمضي إلى غير رجعة؛ مثل الزمن يتفلت من بين أصابعك، ولا يعود أبداً.. أبداً..

كل نقطة فيه تذكر أن الحياة تظل مستمرة. وسوف تظل مستمرة. رغم الأحزان. رغم الأوهام. رغم الخذلان.

يذكر النهر بالصبر؛إنه يظل صبوراً هادئاً. يمضي في طريقه، أحياناً كسيراً حزيناً، وأحياناً قوياً متيناً، لكنه يمضي على كل حال؛ مثل الحياة.

النهر لا يبهر كثيراً عند النظرة الأولى مثل البحر، لكنه يتسلل إلى داخلك بهدوء وبالتدريج. المشاهير في مختلف المجالات سيبهرونك بالتأكيد عندما تراهم للمرة الأولى أكثر بكثير مما انبهرت بصديقك المقرب يوم رأيته أول مرة، لكن صديقك هذا دخل قلبك أكثر، واقترب منك أكثر، وأحببته – كتحصيل حاصل –أكثر.

كذلك النهر. **العلاقة معه لا تكون حباً جارفاً من النظرة الأولى**. بل تكون علاقة ود عميقة تبنى عبر تراكم السنين. مثل علاقتك بجار العمر وأهله، إنك لن تنتبه لأهميتهم في حياتك، في تفاصيلها اليومية، لكنهم إذا انتقلوا فإنك ستكتئب، حتى بيتك شكله سيتغير.

وجيران النهر كذلك. النهر يدخل في تفاصيل حياتهم وسلوكياتهم سواء وعَوا ذلك أم لم يعوه. إنهم يدمنون عليه، دون أن يفهموا كنه هذا الإدمان.

أعرف شخصياً أناساً من جيران النهر، سيموتون حتماً إن أخذوا النهر منهم، لقد تحولوا بالتدريج إلى كائنات برمائية – مخلوقات نهرية ؛ النهر ليس جار عمرهم فقط، ولا أعز أصدقائهم، ولا بيئتهم، ولا الخلفية التي تجري فيها أحداث حياتهم فحسب.. ولكنه صار جزءاً من ذواتهم، جزءاً من كيانهم..

* * *

ستقول: جميل ومؤثر. لكن ما علاقة ذلك كله بموضوعنا ؟

صحيح. كدت أن أنسى.

كتبت عن ذلك كله لأنه ذكرني به حديث للرسول عليه الصلاة والسلام، قال فيه – ذاك الذي لا يكذب أبداً–: (مثل الصلوات الخمس في اليوم والليلة مثل **نهر جارٍ عذبٍ بباب أحدكم**، يغتسل منه خمس مرات، فهل يبقى من درنه شيء؟).

والتشبيه صحيح إلى درجة الإعجاز.

فعلاقتنا بالصلوات الخمس اليومية تشبه علاقة النهر بجيران عمره. لا حب جارف صاعق من النظرة الأولى. ولكن علاقة ود ومودة ورحمة، يزيدها الزمن متانة وقوة وحكمة.

لو قلت لك، أو لأي أحد، أو لو أن أي أحداً قال لأي أحد: إن الخشوع سيكون هناك منذ الركعة الأولى التي تؤديها له سبحانه وتعالى، لكان ذلك كذباً مفضوحاً لا يصدقه أحد.

لو قلت لك، أو لأي أحد، إن التعلق بالصلاة سيأتي منذ اليوم الأول الذي تصلي فيه، وإن التلذذ بحلاوة الصلاة سيكون منذ اليوم الأول والركعة الأولى، فإن ذلك سيكون من قبيل المبالغات الإنشائية التي لن تسمن ولن تغني من جوع..

ربما في الحج هناك شيء كهذا - على ما يقولون ويارب أوعدنا معاً بإذنه تعالى - في الحج هناك ذلك الخشوع الجارف الذي يتأتى فجأة من النظرة الأولى، تنهمر الدموع وتتدفق المشاعر، ويسري التيار الكهربائي الصاعق في الأعصاب، منذ النظرة الأولى..

لكن في الصلاة، لا، هناك في البداية التعود والاضطرار، ثم الاصطبار عليها، ثم السكون والهدوء، ثم الطمأنينة والراحة، ثم ذلك الحب العميق والمودة الصادقة للنهر الذي يمر أمام بيتك، وتغتسل فيه خمس مرات كل يوم، **لو أخذوا منك النهر، من سيأتيك بماء معين؟..**

طبعا قد يفيض النهر أحياناً، ويجتاحك الخشوعٍ في الصلاة، وتنهمر دموعك وتسيل أعصابك وتحلق عاليا في السماوات السبع بينما أنت ساجد وجبهتك على جبهة الأرض.

لكنٍ ذلك كله لن يأتي فجأة. بل بالتدريج. بهدوء. رويداً رويداً..

ورمضان بركعاته الخمسمئة الحتمية، يعطيك الطعم لكي تحب ذلك النهر الذي يأتيك إلى بابك، يعطيك الوقت لينمو في داخلك ذلك الودّ المتراكم، وتنمو في أحشائك مشاعر الحب تجاه جارك هذا الذي تغتسل فيه خمس مرات كل يوم..

رمضان يمنحك الفرصة للتعود. والتعود ضروري جداً في تطور أي علاقة ليس فيها حب النظرة الأولى..

رمضان يمنح لك ولغيرك، فرصة الاصطبار، ومحاربة الكسل، وقتل العجز.

رمضان يعطيك قطعة أرض غالية الثمن، مطلة على شاطئ النهر مباشرة.. يسجلها باسمك.. ويعلمك السباحة!.

* * *

نهر جارٍ عذب بباب دارك.

وأقول لك: خذ نفساً عميقاً جداً، واغطس!.

* * *

وستسألني: لماذا إذن ينقطع الكثيرون عن الصلاة بعد رمضان؟.

إنه سؤال حزين.

وجوابه معقد. فما الذي يدفع الناس إلى أن يتركوا النهر بعد ما تعودوا عليه واغتسلوا منه وسبحوا فيه؟.

ما الذي يدفعهم إلى أن يتركوا أرضاً هم جيران النهر فيها، ليعودوا للسكن في أرض خربة، صحراء جافة، لا ماء فيها ولا زرع؟..

نعم. إنه سؤال حزين. وجوابه معقد..

فلربما لأنهم لا يعرفون، لم يخبرهم أحد بذلك، وبين كوم الأشياء النمطية التي تقال في بداية الشهر وخلاله عن المغفرة والأجر العظيم لم يخبرهم أحد عن الفحوى من ذلك كله. لم يتكلم لهم أحد عن الطعم في الصنارة، أو لعل أحداً أخبرهم؛ ولكنهم قوم لا يسمعون؟..

أو ربما كما قلت أنت مرة، عندما سألتك أنا مرة السؤال الحزين نفسه. شيطانهم قوي..

وكما قلت سابقاً: عندما يتعلق الأمر بالقوة والضعف، فالمسألة تظل نسبية.

فإما أن شياطينهم قوية.

أو أنهم هم الضعفاء.

***

والضعف والقوة مسألة حساسة وأساسية في علاقتنا بأنفسنا وبالله عز وجل، وبالشيطان الذي يتربص ضعفنا ويترصد تعبنا - ليهجم..

والطعم الذي يستدرجنا إليه رمضان مجدداً- بينما الشيطان مصفد في أغلاله مقيد هناك في الزاوية المظلمة - هو أنه يجعلنا نعلم كم نحن أقوياء.

أو بعبارة أخرى، يجعلنا نعلم كم من الممكن أن نكون أقوياء.

يجعلنا نستشعر نواحي القوة في دواخلنا، نستكشفها ونقيمها.. ونستثمرها..

لا أقول لك أن ذلك يحدث دائماً.

لكني أزعم أنه ممكن أن يحدث دائماً.

* * *

تذكر مرة حكيت لي عن صديقك ذاك (الذي اسمه يشبه اسم نهر صغير في منطقة ريفية بعيدة..) وعن قصة التزامه الطريفة.

سأتجاوز تفاصيلها المتعة - والتي تؤكد فقط ما قلته لك سابقاً من أن الإيمان يتحرك بطرق غامضة -لأصل إلى نهايتها وملاحظته الجميلة التي لها صلة بموضوعنا.

قال لك: إنه مرة بعدما صلى صلاة العصر في المسجد، قضى الوقت كله فيه إلى صلاة المغرب، ثم صلاها جماعة، وخرج..

وعندما خرج يسير في الشارع وحيداً انتابه ذلك الشعور العظيم بالقوة والمنعة، بالضبط قال لك: إنه أحس أنه قد صار **أقوى شخص في العالم!.**

ضحكنا معاً، أنا وأنت، وكررنا معاً العبارة: أقوى شخص في العالم!.

لعله لا يدري، كم هو صحيح ورائع تعليقه هذا..

* * *

أقوى شخص في العالم!.

ورغـم أن مصداقيـة هـذه العبـارة تحتـاج إلى مباريـات عالمية، ومقاييس انتخابية، وسيطرة نوعية، وتفاصيل فيزيائية وفسيولوجية كثيرة؛ إلا أن العبارة صحيحة بشكل مدهش، لا، ربما ليست الدهشة هي في التعبير الذي يجب أن أستعمله هنا، بل شيء آخر يتملكني كلما خرجت عبارة ربما كانت عادية وعامية لكنها تخترق بصدقها وبساطتها جوهر الحقيقة، أكثر بكثير من تلك العبارات النمطية التي يتمنطق بها أولئك المثقفون..

أقول ذلك، لأني بعدما فكرت بعبارة صديقك، وجدتها شيئاً استثنائياً اخترق جوهر الحقيقة بشكل استثنائي ونادر..

سمعت، وسمعنا جميعاً، ذلك الحديث الشهير عن صلاة الجماعة التي تفضل صلاة الفرد بسبعٍ وعشرين مرة..

وكعادتنا، جلسنا مثل المرابي اليهودي العتيق- الذي كثيراً ما نكونُهُ في حالات كهذه - جلسنا نعد ونحصي ونحسب، كما لو كنا موظفين نشطين في بورصة الأجر والثواب؛ نعد ونجمع ونطرح ونفاصل، كما لو كنا قد أدينا فضلاً على رب العزة إذ نحن ذهبنا إلى المسجد..

وفي غمرة حساباتنا نسينا شيئاً مهماً، لكن صديقك تذكره، أو فهمه، أو شعر به، عندما خرج من الجامع يسير في الشارع وحيداً.. وأحس أنه أقوى شخص في العالم..

كيف لم ينتبه أحد إلى ذلك؟ كيف لم يخبرنا أحد بذلك؟ كيف لم يفسر أحد لنا تفاصيل الأجر المضاعف؟ لكن صديقك أحس. ربما دون أن يفهم بوضوح. ثم إنه قال، وهو المهم.

صلاة الجماعة، كتحصيل حاصل، تجعل الواحد منا بعشرين. أو بخمس وعشرين أو بسبع وعشرين.. (وعملياً، إذا كان الفرد الواحد الذي يصلي جماعة يساوي سبعةً وعشرين شخصاً من أولئك الذين يمشون في الأسواق، فإنه – عملياً – يكون فعلاً أقوى شخص في العالم، وليس أقوى منه وأصلب إلا شخص مثله؛ يصلي جماعة).

صلاة الجماعة تضاعف من قوتك. تجعلك **تستمد طاقتك الروحية من الجمع** الذي يصلي معك. وكل فرد يصلي في الصف هو مثلك. بدون الصف لا يساوي شيئاً ولا يحسب ربما إلا كصفر على الشمال، لكن انتظامه في الصف، انتماءه للجماعة، هو الذي يجعله يميناً. أقصى اليمين. هو الذي يجعل له وزناً..

صلاة الجماعة تعطي ذلك الشعور الطاغي، أنك فقدت فرديتك المزمنة وعزلتك السرية، وتمنحك ذلك الانتماء للآخرين الذين ينتمون بدورهم إلى الجماعة، وهو شعور (رغم الغموض الذي قد يكتنفه) إلا أنه يمنح في الوقت نفسه الطمأنينة والسكون.

إنها طمأنينة مستندة على جدار الصف المتين المتماسك الذي تكونه صلاة الجماعة. طمأنينة مستندة على **حقيقة أنك**

أخيراً - في هذا العالم الموحش النائي - لم تعد وحدك، وأنك أخيراً - في هذا العالم القاحل المليء بالوحدة والعزلة والخذلان والغدر - صار لك جماعة..

طمأنينة لا يعرفها إلا ذاك الذي ظل لدهور وحيداً تائهاً **دونما صديق في الربع الخالي**. وفجأة صار له ربعَ طمأنينة هادئة. تسري بصمت من كتف لكتف. من قدم لأخرى. عبر ذلك الصف المتراص الواقف للصلاة. نعم، إنها القوة الهادئة المطمئنة، تنتقل من واحد لآخر لتسكن في المجموع، في فرد هو جزيئة من تركيب كامل لا يتحقق إلا عبر اتحاد الجزيئات، وكل جزيئة لا تحقق ذاتها إلا عبر التصاقها المتفاعل مع الجزيئات الأخرى..

الإسلام كما يقال، أو بالأحرى كما لا يقال!، هو مجموعة من التوازنات بين الروح والمادة. الرحمة والقوة. وبين الفرد والجماعة.

وبالنسبة إلى التوازن الأخير على الأخص، بين الفرد والجماعة، فإن صلاة الجماعة خصوصاً هي التي تأتي به، في شكل واضح وجلي..

صلاة الجماعة تنجز ذلك بشكل حاسم وتلقائي ومن دون تصعيدات لفظية وخطابية.

صلاة الجماعة تحقق ذلك **الذوبان الذي يحصل للفرد في الجماعة**، بالتدريج تتسايل جزيئاتك، تتدافع ذراتك، تتوتر كل جزيئة فيك لتخرج من قمقمها، من أفقها الضيق، من زنزانة

الذات، وتتدافع نحو السماء الأرحب، نحو الأفق الطلق، نحو الجماعة، حيث يتمايز وجودها وتظهر فاعليتها أكثر عندما تلتقي مع بقية الذرات، والجزيئات، تتفاعل جميعاً في إطار واحد. وتنصهر في بوتقة واحدة..

صلاة الجماعة تفعل ذلك. وفي الحقيقة، هي صممت أصلاً لتحقق ذلك.

وحتى لو صليت الصلاة منفرداً، في ركن بعيد خالٍ أو غرفة منعزلة أو صحراء خالية، فإنك مضطر بما لا مجال فيه للتغيير أن تتحدث في فاتحة صلاتك - التي لا صلاة من دونها - بصيغة الجماعة. تكون وحدك، بينك وبين الجماعة ربما قارة، ومع ذلك تهمس: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. تذكرك الكلمات، عندما تنطقها بأنك جزء من الجماعة، مهما بعدت، مهما ابتعدت..

أو كما لو كانت الكلمات تذكرك بأنك خروف شارد من القطيع.. خروف مسلوب، منهوب من القطيع.. وإذا ظللت كذلك فإنك مرصود لذلك الذئب الذي يتربص من الغنم القاصية.

صلاة الجماعة تحقق الانتماء، وتعطيك تلك الهوية: **لم تعد وحدك**. صار لك جماعة، لن تنصهر ملامحك تماماً ولن تضيع استقلاليتك، لكن حدودك لن تتمايز إلا عبر تفاعلها مع الجماعة..

وستذوب الـ(أنا) في الـ(نحن)، ستأخذ الـ(أنا) من الـ(نحن) قوتها وتماسكها وبنيانها المرصوص، فتصير سداً منيعاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

وستأخذ الـ(نحن) من الـ(أنا) تنوعاتها وتمايزاتها وإبداعاتها وخصوصياتها فتصب فيه كما يصب النهر في المحيط. تخصب الـ(أنا) الـ(نحن) كما تخصب الدلتا من طمي الأنهار..

وبين هذا الذوبان الأخاذ وذاك التفاعل الجامع سيسري - مثل تيار كهربائي - ذلك الشعور المطمئن بالقوة والمنعة..

وسيخرج واحد - تعرفه - من الجامع بعدما صلى فيه صلاتَي جماعة وقضى الوقت بينهما فيه، سيخرج بجيوبه منتفخة بالأجر؛ كل صلاة فيه بسبع وعشرين مرة، وسيمشي في الشارع يكاد يهز الأرض تحته من القوة، وسيشعر بذلك الشعور الفطري الذي لم تعقده التنظيرات والخطابات والفلسفات، والذي سيعبر عنه بذاك التعبير البسيط الخارق: **أحسست أني أقوى شخص في العالم..**

***

الواحد في الجماعة، بسبعة وعشرين واحداً منفرداً.

أي أن كل واحد منهم هو أقوى شخص في العالم. أو على الأقل هذا ما يمكن أن يحس به.

لا أزعم أنهم ملائكة. لكني أعرف أن الملائكة معهم.

ولا أزعم أن هذا يحدث دائماً.

لكنه يحدث. ومن الممكن (لو سمحنا له) أن يحدث على الدوام.

* * *

بالمناسبة، صديقك هذا، رأيته للمرة الأولى قبل أيام. مع جسم كهذا، وعضلات كهذه، بديهي جداً أن **يشعر أنه أقوى شخص في العالم!**.

* * *

ورمضان، بتسهيلاته تلك، يجر الناس جراً إلى الجوامع، في التراويح أو غيرها، يذهبون طمعاً في الأجر والمغفرة والعتق من النار. أو يذهبون، هكذا، بلا سبب، لأنه رمضان، وقد تعود الناس الذهاب فيه إلى الجامع، كما تعودوا على تلك اللعبة الرمضانية الشعبية التي أكرهها كثيراً..

لا يهم، سيذهبون دونما سبب. سيذهبون فقط، لكنه الطعم في الصنارة، كما تعلم، وشيئاً فشيئاً، ودون أن يدرك واحد منهم ما يُدبر له، سيجذبه الأمر، سيسري فيه، بالحث، ذلك التيار الكهربائي الذي ينتقل من كتف لكتف، ومن قدم لأخرى، سيحس كل منهم بقوة مختلفة تجتاحه من الداخل، لم يعد شيطانه قوياً كما كان قبلها، وسيفكر مع نفسه أنه رمضان، وقد قيدت فيه الشياطين وصفدت، وأصبحت ضعيفة..

وكما قلت: عندما يتعلق الأمر بالقوة والضعف، فالأمر نسبي، فإما أن الشيطان صار ضعيفاً، أو أنك أنت الذي أصبحت قوياً، واكتشفت نواحي القوة الكامنة في أعماقك.

أو، وهو الأغلب، الاثنان معاً، ضعف الشيطان - العابر - جعلك تتمكن من اكتشاف قوتك..

* * *

وعندما ينتهي رمضان. وتنقطع عن الذهاب إلى المسجد، ستفتقد ذلك دون أن تدري. وستستيقظ من نومك ذات يوم هلعاً وأنت تكاد تختنق وتموت، ستشعر أن فؤادك أصبح فارغاً، بل أن قفصك الصدري كله قد فرغ فجأة.

وستكتشف فزِعَاً، أن قلبك لم يعد مكانه.

لقد فقدت قلبك فجأة. وها هي شرايينك تنبض في الفراغ.

وستذهب لتبحث عن قلبك، في الأماكن التي تعودت أن ترتادها. في بيوت الأقارب والأصدقاء حيث ذهبت في العيد، في ذلك المطعم الذي سهرت فيه. هنا أو هناك.

في البيت بين أكوام الملابس التي تنتظر الغسيل، قرب الهاتف وأنت تنتظر مكالمتهم التي تجيء ولا تجيء؛ ستبحث، دون جدوى..

تذكر أن تذهب إلى الجامع حيث كنت تذهب قبل العيد. لكن لا تسأل الخادم عن قلبك الذي ضاع، سيظنك مجنوناً على الأكثر، ادخل الحرم، وانظر إلى السقف.

ستجده معلقاً هنا، ساطعاً منيراً، موصولاً بذلك التيار الكهربائي الذي يسري بين الأكتاف والمناكب والأقدام..

لكنه يكاد يموت وينطفئ. لأنك قطعت التيار، عندما انقطعت عن الذهاب..

هذا على الأغلب، ما عناه ذاك الذي لا يكذب أبداً، صلوات الله وسلامه عليه، حينما قال عن رجل يستظل بظل الرحمن، يوم لا ظل إلا ظله..

قال:إن **قلبه كان معلقاً بالمساجد.**

نعم: معلق مثل الثريا الساطعة الموصولة بتيار الأكتاف والأقدام والقلوب..

***

السؤال الحزين نفسه مرة أخرى، لماذا إذن لا يرجعون؟. ولماذا إذن ينقطعون ويتركون قلوبهم - المعلقة هناك في السقف - تذوي وتنطفئ وتذوب؟؟.

والجواب المعقد نفسه - الذي لا يخفف الحزن - ربما حاولوا الرجوع إليه، ولكن الشيطان كان هناك كعادته، ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ** ﴾ **[العنكبوت 29/ 38].**

صدهم عن السبيل. وصدَّق عليهم إبليس ظنه.

***

ويقولون من ذاق عرف، ومن عرف اغترف..

فلماذا إذن، بعدما ذاقوا وعرفوا، لم يغترفوا، بل لم يقتربوا أصلاً من جديد؟..

كيف يحدث ذلك؟... كيف يمكن أن يحدث ذلك؟...

إنها المأساة الإنسانية نفسها تتكرر باستمرار. مأساة الغباء الإنساني في استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.. **﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ﴾ [البقرة 61/2].**

رغم أنهم ذاقوا، وعرفوا.. حدث ذلك..

***

أتساءل. إذا لم يكن رمضان هو الذي سيجعلك تتذوق، لتعرف.. ومن ثم تغترف، فماذا إذن؟

وإذا لم يكن رمضان هو الذي يجعل الصنارة تعلق، فماذا إذن يا ترى؟.

وهل ستعلق أصلاً بشيء؟

وإذا لم يكن رمضان هو الذي سيجعلك جاراً للنهر الجاري العذب، بباب دارك، ويجعلك تغتسل فيه، فلا أعتقد أن هناك شيئاً آخر سيخلصك من المستنقع الآسن الذي هو بديل..

وإذا لم يكن رمضان هو الذي يجعلك تشعر بأنك أقوى شخص في العالم، فأخشى أنك ستكون أضعفهم وأكثرهم تردداً وهزيمة..

وإذا لم يكن رمضان هو الذي سيجعل قلبك معلقاً- كالثريا الساطعة - في سقف المسجد، موصولاً بذلك التيار السري الساري الذي سيغير ذات يوم العالم بأسره، فماذا إذن سيحل بقلبك؟..

واجه نفسك، فلنواجه أنفسنا جميعاً: إذا لم يكن رمضان هو الذي سيخرجنا من مشاكلنا، فهل إلى خروج من سبيل؟.

واجه نفسك بهذه الحقيقة. أو فلنواجه أنفسنا جميعاً: لا مجال للتأجيل. إنه (بروفة) المشهد النهائي. إذا لم يكن رمضان هو الذي سيحسم أمرك، ويقتل هذا التردد والتذبذب والكسل، وينقذ عمرك.. فلا أظن أن الأمر سيختلف فيما بعد؛ سنظل كما نحن. كل رمضان نتقدم خطوة. وبعدها؛ كما كنت. ويعني ذلك عملياً عشر خطوات إلى الوراء..

فلنعترف: إذا تذوقنا وعرفنا، ولم نغترف، بل عفنا وأصررنا على استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير؛ إذا تركنا المنّ والسلوى، فسندفع ثمن ذلك غالياً: بصلاً وثوماً، ذلة ومسكنة وغضباً من الله.

فلنعترف: إذا لم يكن رمضان سينقذنا فماذا إذن يا ترى؟.

* * *

لكن الطعم في الصنارة **لم تنته محتوياته بعد..**

لا يزال فيه شيء مغرٍ جداً، وجذاب جداً. (لو كان الناس يفقهون).

لا يزال في الطعم بقية كافية لأن تجعل الناس يسقطون في فخ يغير حياتهم، وينقذهم مما هم فيه..

لا يزال الطعم، بعد الصلوات الخمس، بعد صلاة الجماعة. فيه شيء أكثر، ممكن أن يجعل الناس يتذوقونه - فقط لأنه رمضان - لكنهم بعدها لا يتركونه أبداً..

ربما سيتذوقونه في رمضان، ثم يصير فيما بعد وجبتهم الأساسية التي لا غنى لهم عنها..

* * *

رمضان يستطيع أن يجعلك تشعر بأنك من النخبة..

رمضان يستطيع أن يجعلك تحس بأنك من الصفوة العليا، من تلك الطبقة الأعلى في المجتمع..

مجتمع النخبة..

رمضان سيجعلك تنتمي لهؤلاء الأفراد المحظوظين..

للصفوة..

* * *

لا.

ليسوا المشاهير على صفحات المجتمع في المجلات.

ليسوا أفراد الجت ست؛ أولئك الذين يشتون في ماربيا ويصيفون في الكوت دازور ويتسوقون من باريس ويكدسون الأموال في جنيف.

لا!.

ليسوا أولئك الذين يختارون ألوان سياراتهم لتنسجم مع ملابسهم، وينفقون على دعوة غداء ما يكفي لإطعام قبيلة من الجياع لمدة سنة، ويغيرون عشيقاتهم وعشاقهم بأسرع مما يغيرون أحذيتهم.

لا!.

ليست الشقة في الطابق التسعين في مانهاتن، ولا اليخت المركون في كان. ولا الملابس من ديور وشانيل وكاردان..

ليسوا أولئك المساكين، الوحيدين رغم الزحام حولهم، التعساء رغم الضحكات الزائفة حولهم، المنفيين في أصقاع شهرتهم، المسوّرين خلف قضبان ثرائهم المكهربة، المعزولين إلا من حراسهم الشخصيين..

ليسوا أولئك الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم30/7].

ليسوا أولئك هم النخبة. ليسوا الصفوة. ليسوا الطبقة العليا..

رغم بريق (الفلاشات) حولهم، رغم الأنوار الساطعة المسلطة عليهم..

ليسوا هم!.

* * *

عن آخرين، لديهم نور ساطع يمشي معهم.. عن نور تام سيكون معهم يوم الظلمة التامة.

عن بريق آخر، غير بريق (الفلاشات) المتلاحقة المتوترة؛ بريق آخر يبزغ في العيون، بريق يتراوح بين الانتعاش والطمأنينة، ويجمع بين اللذة والراحة..

لا!. ليسوا على صفحات المجلات ولا على أغلفتها..

لن تتابع أخبارهم وصورهم وسائل الإعلام..

لكنهم النخبة - الصفوة..

إنهم أولئك الذين يحب الله أن يوقظهم كل فجر، ليذهبوا إليه..

* * *

تخيل فقط!.

من بين مليارات البشر، هناك فئة معينة - محدودة جداً للأسف في الوقت الحاضر -يحب الله إيقاظها فجر كل يوم، لتذهب إليه وتصلي له. في موعد سري يكاد يكون مثل مواعيد العشاق الليلية..

كما يذهب العشاق سراً إلى مواعيدهم، يتسلل هؤلاء أيضاً بهدوء، يمشون في ظلمات ستشهد لهم فيما بعد، ونورهم يسعى بين أيديهم، ويذهبون إليه في رحلة قد تكون بعيدة.

من بين الملايين من الذين قد يكونون في تلك اللحظة ثملين، مخمورين..

ومن بين الملايين من الذين قد يكونون في تلك اللحظة غارقين في شهوة ما..

ومن بين الملايين الذين قد يكونون غاطين في سبات عميق، في غفلة عميقة؛ هي جوهر حياتهم كلها..

من بين كل هؤلاء، يختار الله فئة معينة محدودة - لا أستطيع أن أجزم بنسبتها، فلنكن متفائلين عندما نقول: 1% يوقظهم من نومهم..

وإليه يذهبون..

طبقة الـ 1% تلك، هي النخبة حقاً.

ورمضان يستطيع أن يجرك إليها..

***

وهؤلاء أيضاً يكونون مشهورين جداً شهرة عظيمة وفائقة، أكثر بكثير من أولئك الآخرين الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

إنهم مشهورون جداً. ولكن بشكل مختلف.

إنهم مشهورون بين الملائكة. بين الأنبياء. وبين الصِّديقين.

إنهم معروفون جداً في السماوات السبع. ليس هناك من لا يعرفهم فيها. حتى جبريل؛ أمين الوحي والرسالة يعرفهم..

أخبارهم هناك منتشرة، والكل يتابعها ويتتبعها. وإذا ما تغيب أحدهم عن الذهاب إلى صلاة الفجر، فالكل يسأل عنه باهتمام، وإذا ما تكرر الغياب فسيعم القلق الحقيقي والصادق.

وإذا حصل وانقطع أحدهم تماماً فإن الملائكة هناك ستحزن، وربما سيعلن الحداد في السماوات السبع، وسيعامل الموضوع كما لو كان قصة حب حزينة انتهت بالفراق، فكيف يستطيع حقاً أن ينقطع عنها من جربها، وكيف يستطيع أن يمتنع عن الذهاب من يوقظه الله..؟

وكيف يترك النخبة - طبقة الصفوة المنتقاة - من انتمى إليها، وعرف ملذاتها، وذاق بريقها وتنعم بنعيمها..؟

وهم فوق تلك الشهرة، أثرياء جداً؛ كما يليق بطبقة الـ 1%.

ربما ملابسهم ليست من (ديور)، وربما يذهبون مشياً على الأقدام إلى المساجد، وربما لا يكادون يدبرون أمور معيشتهم، لكنهم أثرياء جداً، وثراؤهم لا تكفيه المصارف السويسرية ولا حساباتها السرية، ولا خزائنها الواسعة، ولا أقبيتها المدرعة المخصصة للمجوهرات النادرة..

ربما لا يبدو ذلك عليهم – وبعض أثرى الأثرياء لا يبدو عليهم – لكن عندما تحق الحقيقة فإن الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا سيكونون مفلسين يوم القيامة، وستراهم وهم يتسولون حسنة من هنا وحسنة من هناك..

أما نخبتنا الأخرى، فستراهم وهم يرفلون بالعز والرفاه، وفي تلك الظلمة التي سيتخبط بها البشر في ذلك اليوم الرهيب، سيتلقى أولئك الذين مشوا إليه في الظلمات ما وُعِدوا به؛ النور التام يوم القيامة..

إنهم تلك النخبة سعيدة الحظ؛ أولئك الذين **يحب الله سبحانه وتعالى إيقاظهم..**

* * *

نعم إنه هو الذي يوقظهم.

لا تصدق الساعات المنبهة الموقوتة على صلاة الفجر.. إنها موجودة فقط من أجل الأخذ بالأسباب. موجودة فقط من أجل طمأنينة القلب..

ولا تصدق أنه التعود. ومن عودهم أصلاً على ذلك إن لم يكن هو..؟

وإذا قالوا الهورمونات والغدد والأطوار الدماغية، فليكن ذلك، إنه الله وطرقه المعجزة الغامضة.

إنه هو الذي يوقظهم. عرف دواخلهم فأكرمهم. نظر في قلوبهم ورآها تستحق أن تكون من تلك النخبة التي تذهب إليه في ذلك الموعد الليلي المتأخر؛ موعد الغرام والحب الحقيقي.

علم أن عيونهم قد تنام. أما قلوبهم فلا، تظل ساهرة وتنتظر الإشارة منه، وبينما تروح أعضاؤهم الأخرى في راحتها الفسيولوجية، فإن قلوبهم تمضي قدماً وتبقى على اتصال دائم به..

وعندما تأتي الإشارة منه عز وجل، يتحرك القلب وينقر على الرأس نقرته الموقظة المميزة.. ليوقظ الأعضاء..

نعم، يحدث ذلك، بل إنه كثيراً ما يحدث، ويميز أولئك المنتخبون ذلك، أحياناً – لسبب أو لآخر – لا تدق الساعة. أحياناً لا تكون أصلاً منصوبة، وأحياناً يكونون مرهقين جداً فينسون توقيتها، وأحياناً لا تكون هناك ساعة، وكل شيء يبدو كما لو أن الصلاة ستفوت.. وتكاد تفوت فعلاً، لكن عيونهم تنام، أما قلوبهم فلا، .. وفجأة تأتي تلك النقرة الخفيفة على قاع الروح. تلك الضربة الموقظة الغامضة، فيهبون من نومهم مذعورين، يكاد أحلى موعد أن يفوتهم، ويهرولون في الظلمة متعثرين ببقايا نومهم وبملابسهم وبوضوئهم، ويلحقون الموعد في اللحظة الفاصلة، قبل أن يفوتهم..

ليس هذا نادر الحدوث. على العكس، وكما قلت: إنه كثيراً ما يحدث..

لقد نظر إلى قلوبهم فعلم ما في داخلها، وأيقظهم.. هو الذي أيقظهم.. فهبوا ولبوا وهرولوا..

* * *

وإذا حدث أنهم لم يستيقظوا، فلن تتخيل الأسى والكآبة التي سيواجهون بها بقية يومهم..

شيء مرير، كالعلقم سيظل طعمه معلقاً في أفواههم..

شيء أكبر من الندم. أقوى من الحسرة، سيظل هناك في لا وعيهم، يعذبهم بطريقة شريرة، كلما صادفهم عارض أو مشكلة، هزوا رؤوسهم مع أنفسهم، وقالوا: نعم، **لقد أخلفنا الموعد..**

لاشيء سيعوض ذلك إلا الموعد التالي.

إنها وجبتهم الأساسية، لا غنى لهم عنها، ستظل أرواحهم جائعة، لا شيء يشبعها من بقية الوجبات التي ستبدو هزيلة مقارنة بموعد العشق الليلي الذي أخلفوه.

و كما (الكافيار) وجبة النخبة المترفة الأساسية، فإن الفجر وجبة هؤلاء الأساسية، ودونها سيكون الجوع .. وسيظل ذلك الجوع في أرواحهم، يأكل قلوبهم حسرة وندماً وألماً، ولأن ذلك سيكون حقيقياً وصادقاً، ولأنه نظر في قلوبهم وعرف بوجوده.. فإنه سيوقظهم..

* * *

فلا تقل أبداً– ولا يقل أحد ولا أقول أنا:– إنك كنت متعباً جداً فلم تستيقظ.

لو كنت جادّاً، لأتعبك جداً ألَاّ تستيقظ.

لـو كنـت جـادّاً، لنامـت عينـاك وبقيـة أعضائـك، لكـن قلبـك كان سيظل سـاهراً ينتظـر.

أقـول لـك، ونفسـي أحق أن أقـول لهـا: لو كنـا جاديـن، لأيقظتنـا تلـك اللمسـة الغامضـة التـي نعـرف مصدرهـا، تلـك النقـرة الخفيفـة - كالصـداع - التـي تنقـر علـى الرأس، تلـك الضربـة الخفيـة التـي تقـرع قـاع الـروح.

لـو كنـا جاديـن، لأيقظنـا، هـو الـذي يعلـم دواخلنـا، وينظـر في قلوبنـا.

لـو كنـا جاديـن، لأبقانـا في تلـك الطبقـة - النخبـة - التـي يختارهـا ليوقظهـا ولتكـون هنـاك في ذلـك الموعـد..

ولو كنا جادين، لأتعبنا جداً أن ننزلق عن ذلك الاختيار..

* * *

ورمضان يجر الناس جراً ليكونوا من تلك النخبة..

ليجربـوا لـذة ذلـك الموعـد وخفايـاه وأسـراره، وليسـطع عليهم ذلك النور التام من المشي في الظلمات.

مثـلاً هنـاك فقـرة السـحور والترغيـب بتأخيـره، الأمـر الـذي يعنـي أن توقيـت الطعـام سـيكون متاخمـاً جداً لوقـت الصلاة.

وهـو أمـر سـيجعل النـوم المباشـر صعبـاً بعض الشـيء؛ مع ثقل الطعام وشهوات التجشؤ.

ورهبة الفجر والظلمة مكسورة في رمضان.

فلماذا إذن لا تصلي في الجامع؟.

ويذهبون!.

وبدلاً من أن يذهبوا إليه ولو حبوًا، فإنه يكاد يأتي إليهم حبوًا.

إنه الطُّعم في الصنارة.

الطُّعمُ الذي قد يصير فيما بعد وجبتهم الأساسية.

***

السؤال الحزين نفسه.

والجواب المعقد نفسه..

***

والقرآن..

أقول لك منذ الآن. لا تتعامل معه كالمرابي اليهودي، لا تقف منذ أول يوم في رمضان وتقول: جزء كل يوم، والختمة المعتادة نهاية الشهر.

لو كان ذلك ينفع، لنفع!.

أقول لك: لا تضع حدوداً ولا حواجز ولا عوائق أمامك..

إنما وضعت التقسيمات – إلى أجزاء وإلى أحزاب – لتسهل الانطلاق (في الحفظ) لا لتعيقه..

فانطلق إذن.. كالمهر الطليق في براري الضياء.. لا حواجز ولا عوائق..

انطلق بلا حدود أيها الفارس العتيق. واستغل أن الخيول تجهل قوانين المرور..

لا (قف) ولا (تمهل) لا (طريق وعر) ولا (منحنى خطر)..

وحلق فيه عالياً، لا تدع النسر الرابض على كتفيك يتقاعد..

لن يرهقك التحليق صعوداً. بل سيريحك، في كل مرة أكثر.

دعه يتقدم في مجاهلك وأغوارك وعقدك ومخاوفك..

دعه يطرد الخفافيش التي عشعشت منذ أجيال في زواياه..

دعه يطرد - بنوره - تلك الظلمة الكئيبة.. وذلك الحزن المقيم..

افتح له نوافذ قلبك، أزح الستائر المسدلة والأغطية العتيقة..

انفض برياحه الغبار المتراكم على صماماتك، ولتغمد الشمس نفسها في حياتك..

فليتقدم- كما الربيع - ليكون فصلك الأساسي والنهائي، بعدما تعاقبت على حياتك الفصول؛ فصل الزمهرير، فصل الخيبة، فصل اليأس، فصل السبات، دواليك..

ليكن ربيعاً لقلبك: تزهر فيه الأغصان الجرداء.. وتخضر الأرض القاحلة..

وتطلق النوارس فيه صرخات العودة..

أقول لك: دعك من حسابات المرابي اليهودي وخذ الأمر بشكل شخصي جداً.

اعتبر أنه قصة حياتك. وبين دفتيه اعرف لتغترف..

قل لنفسك: نعم. هنا وضعك الله في الاختبار. هنا فشلت. هنا أزلك الشيطان. وهنا أخرجك من الجنة.

وقل لنفسك: وهنا هداني الله. هنا عدت إليه. وهنا تبت إليه وطرقت أبوابه، وهنا قَبِلني وفتح لي أبواباً ما أغلقها قط..

وقل لنفسك: وهنا سوف أهاجر، وهنا سوف أصبر، وهنا سوف أوجه وجهي إليه، أسلم نفسي إليه.

وهنا سوف يعزني بعد ذلّ. ويقويني بعد ضعف. ويُغنيني بعد حاجة...

ليكن قصة حياتك، تستكشف فيه ما سيطلع لك.. ويكذب المنجمون دوماً لكن يصدق هو..

اقرأه بلهفة من استطاع أن يطلع على الغيب ويريد أن يعرف ماذا سيحصل له..

ليكن شخصياً جداً: **لتكن أسباب نزوله، أسباب صعودك.**

عندما تقرؤه دعه يُقرِئك...

لا تدعه كتاباً على الرَّف، ليكن مفتاحك ودرعك ووسادتك وبوصلتك ورادارك..

ولا تكن بخيلاً على حياتك؛ فتحدد وتقسم ولا تقرأ بعدها إلا جزءاً واحداً كل يوم..

بل انطلق، كالمهر الحر، في البراري الفسيحة.

وليكن الأفق سرجك ولجامك..

* * *

وإذا لم يسطع ربيعه على قلبك، فمن تراه في النهاية سينوِّر قبرك؟.

* * *

وإذا لم يكن رمضان هو الذي يجعلك تكتشف في القرآن قصة حياتك، وتقرأ فيه مصيرك وتجد فيه قرارك، فإني متأسف. أظن أنك لن تجد شيئاً في حياتك.

* * *

وأقول لك: وهذه أول مرة يمر عليك رمضان وأنت (غير شكل)، فليكن رمضان هذه المرة إذن (غير شكل)..

* * *

ولا ينتهي رمضان أبداً واستدراجاته..

وفيه - أيضاً- معجزة تتحدى باستمرار، وتتكرر باستمرار، في ليلة ما من لياليه..

وقد حصلت لي شخصياً في العام الفائت. لكني لن أتحدث عن ذلك الآن، ربما في المرة القادمة (إذا كان هناك وقت لمرة قادمة)..

* * *

وأقول لك: هات رأسك، هاته..

رأسك المشوش مثل خلية نحل، المضطرب مثل كرة صوف..

هاته وضعه تحت الماء في المغسلة..

فليغسل رمضان بالماء البارد رأسك ويرحكَ من همومه..

وأقول لك: هات صدرك.. هاته..

صدرك المتعب مثل محكوم بالأشغال الشاقة المؤبدة منذ ألف عام، المنخوب بالهموم مثل جثة محكوم بالإعدام رمياً بالرصاص لم يمت بسهولة..

هاته، ودع رمضان يفك الأغلال.. ويقص القضبان.. ويرتق الثقوب..

هات قلبك، منفضة السجائر وخزانة الهموم، أخرجه من قفصك الصدري، أغطسه في الماء جيداً.. ثم جففه بما لن تجد في البيت ما هو أنظف منه، غطاء رأس والدتك عند الصلاة..

جففه جيداً.. ثم سلمه لرمضان..

* * *

المهم في رمضان ليس رمضان نفسه. بل ما بعده بالتأكيد..

فالمسألة المهمة هي: هل سيترك رمضان أثراً عليك، هل تذوقت وعرفت لتغترف. أم إنك ستعود - كما كنت - لحياتك السابقة؟..

هل سيترك رمضان أثراً، هل سيحدث فرقاً، أم إنه شهر وكفى، وبعدها تعود لصديقك القديم؛ إبليس ورفاقه؟.

لذلك أقول: فتش عن رمضان بعد رمضان..

فإذا كنت تجد أنك بعد رمضان، قد اقتربت من الله خطوة، بتلك الطاعة هنا وبترك تلك المعصية هناك، فاعلم أنه كان رمضان..

أما إذا لا، وعدت كما كنت؛ المعاصي نفسها والغفلة نفسها، فاعلم أنه لا رمضان في تلك السنة..

للأسف: لقد فاتك رمضان..

* * *

صبيحة العيد.

وأنت تقف أمام المرآة، لتتأنق في ثياب العيد..

وأنت تحرص على التفاصيل التي ستظهرك في أبهى صورة؛ تناسق الألوان.. الياقة المنشاة.. طية الثوب المكوية..

كل شيء.

أقول لك: احرص أكثر. ودقق أكثر. وتأمل في المرآة أكثر.

اغرق في تفاصيل الأناقة، ليس في ذلك ما يعيب.

ولكن هناك تفصيل واحد لا تتجاوزه.

أقول لك: تأمل في رقبتك. تحسسها، مد أصابعك وانزل إلى التقائها مع كتفيك..

حدق فيها جيداً. وتحسس أكثر، وتأمل أكثر، وتساءل في صبيحة العيد وأنت أمام المرآة هل أعتقت هذه الرقبة من النار؟؟ أم أن الأغلال لا تزال تسلسلها وتشدها إلى جهنم؟.

هل تحس آثارها الغليظة على رقبتك؟ هل تسمع صوت خشخشتها إذا التفت يميناً ويساراً وهَزَزْتَ رأسك بشدة؟.

هل أعتقك رمضان من النار؟ أم أنك وصلت إلى طرفها وكدت تنجو لكن إعادتك إليها عودتك إلى ما كنته قبل رمضان.

صبيحة العيد، لا يزال ثمة أمل، الأيام التالية هي التي ستحدد بالضبط، وتستطيع أن تعرف منها وضعك بالضبط، هل نجوت أم أنك لا تزال في القعر هناك؟.

الأيام التالية هي التي ستحدد: هل ولدت من جديد في رمضان؟.

أم أن الولادة كانت ميتة، حالة احتضار أخرى؟.

***

على باب رمضان أقف وأنتظر مثل أب مفجوع ينتظر أمام باب صالة الولادة.

جزعاً هلعاً فزعاً ينتظر ويترقب.

ويروح ويجيء، ويروح ويجيء، ويروح ويجيء. عيناه معلقتان بفتحتي الباب: تروح وتجيء.

وفتحتا الباب، فتحة تروح وفتحة تجيء، الناس يطلون، ناس تروح، وناس تجيء..

والعالم كله يبدو ساكناً بشكل مروع، لا يروح ولا يجيء.

ويظل هو يروح ويجيء متكئاً على عكازتين، واحدة للقلق، وواحدة للأمل..

الناس من حوله لا يحس بوجودهم ؛لا الذين يحاولون أن يظهروا تعاطفهم معه ومواساتهم له، ولا أولئك الذين لا يبالون به..

إنه لا يراهم.

إنه لا يرى شيئاً سوى فتحتي الباب: فتحة تروح، وفتحة تجيء..

ومن بين كل الأطفال في العالم أولئك الذين ولدوا، **وأولئك الذين لم يولدوا بعد، لا يرى سوى واحد: هو طفله، وأمه معه..**

أي شيء آخر سيطوح بحياته في الفضاء..

ويروح ويجيء، وكله آذان تريد أن تلتقط ما يدور هناك خلف فتحتي الباب التي تروح وتجيء..

ويحسب كل صيحة عليه. ويحار في تأويلها؛ تراها صرخة احتضار، أم صيحة ولادة..

ويروح ويجيء. ويطحنه هذا الأمل الذي يروح، والقلق الذي يجيء..

وفجأة. وكما لو أنه لم يكن يتوقع، يطل وجه معين من خلف فتحتي الباب التي ستكف عن الرواح والمجيء..

ويعرف أن الدور دوره..

ويكف العالم عن أن يكون.. يتقلص ويصير معلقاً- مثل طير ذبيح - بكلمة ستخرج من هذا الوجه.

تتجمد الدماء في العروق. يخفق القلب خفقة أخيرة ووحيدة وطويلة مثل إشارة استغاثة صادرة عن سفينة غارقة في محيط خال..

وبين الصمت والكلام، وبين السكوت وحركة اللسان، هناك ستكون لحظة طويلة كالأزل، مؤلمة مثل الأجل..وبعدها، سيكون خبراً واحداً- يجيء ولا يروح - سينهي ذلك كله..

* * *

وعلى باب رمضان أقف أنتظر، وأتساءل ترانا ولدنا من جديد هذا (الرمضان).. أم أننا لم نولد بعد؟.

ترانا عتقنا ونجونا، أم أننا بقينا هناك محبوسين في القعر؟..

وعلى بابه زحام، ناس ولدوا من جديد، وكل عام يولدون من جديد.. إنهم يتمسكون ويتشبثون ويزدادون ثباتاً عاماً بعد عام...

وآخرون، لم يولدوا بعد، لكن فرصتهم لا تزال قائمة، وبابه لا يزال مفتوحاً-إن بابه لا يغلق أبداً..

وآخرون، لا يبدوا عليهم أنهم سيولدون قط. ولا يبدو أن ذلك يلقى اهتمامهم، إنهم سادرون في غفلتهم وفي موتهم الذي يجهلون..

ونحن؟.

لا أدري. لا أزال أنتظر..

* * *

وأقول لك: مد يديك وساهم في هذا المخاض.

ساعد الآخرين الذين لم يولدوا بعد على أن يولدوا..

مـد يديـك لهـم وسـاعدهم وانتشـلهم مـن ظلمـة المسـتنقع الآسـن..

ولا تقـل لي مـا تعـودت أن تقولـه مـن قبـل: الأمـر أسـهل في رمضـان ..

أبواب مفتوحة وأخرى مغلقة وشياطين مصفدة..

والصنارة.. والطُّعم..

الأمـور أسـهل، فأرشـد الناس وخـذ بأيديهم..وشـارك في مخاض الذيـن لم يولـدوا بعـد...

* * *

﴿أَيَّامـاً مَعْـدُودَاتٍ فَمَـنْ كَانَ مِنْكُـمْ مَرِيضـاً أَوْ عَلَى سَـفَرٍ فَعِـدَّةٌ مِنْ..﴾ [البقـرة: 2/184] .

نعم. صحيح، أياماً معدودات.

لـو لم يكن في رمضـان إلا هـذه الحقيقـة يكرسـها في نفوسـنا ويوضحها في عقولنا ويجليها في قلوبنا، لكان ذلك كافياً جداً..

ولكفى به موعظة..

لـو لم يكـن فيـه إلا هـذا الإحسـاس؛ يجعلنـا نحـس بالعمـر يتفلـت مـن بـين أصابعنـا، لـكان ذلـك كافيـاً جـداً.

ولأن رمضان شهر كامل؛ فيتثاقل سراً من يتثاقل. ويتضجر جهراً من يتضجر، إنه شهر كامل، ثلاثون يوماً..

لكنه فجأة يدخل من هنا، ويخرج من هناك، وما تكاد تقول كل رمضان وأنتم بخير حتى تجد نفسك تعيِّد الآخرين وتقول: كل عام وأنتم بخير..

بالضبط.. أياماً معدودات. وها هو العيد يأتي كلمح البصر، وما كان يبدو كشهر طويل مرَّ كغمضة عين قبل أن تفهم منه شيئاً.

وبعد أيام معدودات أخرى سيأتي رمضان الذي يليه، وبعدها أخرى معدودات وبعدها الذي يليه..

وهكذا، أيام معدودات ما تعتبره طويلاً جداً؛ العمر بأكمله..

رمضان يقبض عليك متلبساً بهذا الشعور. يعتقلك أول الشهر وأنت تفكر مع نفسك: ثلاثون يوماً، ما أطولها! ثم يقتادك إلى ما يبدو أنه الجملة التالية على الفور: مرت ثلاثون يوماً، ما أسرعها!

رمضان يقول ذلك: انتبه، هذا العمر الذي تأمل في طوله لن يكون في النهاية إلا مثل هذا الشهر: أياماً معدودة، تمر بسرعة، ولأنه يأتي من هنا ويخرج من هنا، وتكاد لا تشعر به وهو يمر كغمضة عين، كلمح البصر..

رمضـان يقـول لـك: هـذا العمـر يتفلـت مـن أصابعـك، مهمـا حاولـت التمسـك بـه يفلـت منـك، لا شـيء يوقفـه، لا شـيء يمنعـه.

رمضـان يقـول لـك: عمـرك كلـه، هـذا الـذي هـو رصيـدك، **هـو محـض أيـام معـدودات.**

عـد قليـلاً، وقبـل أن يغالبـك النـوم، سـتجد أن عمـرك قـد انتهـى..

رمضـان يقـول لـك: رمضـان أيـام معـدودات. وعمـرك في النهايـة ليس إلا أيامـاً معـدودات. وأحلامـاً معـدودات. وخيبـات معـدودات. وفرصـاً معـدودات. وصداقـات معـدودات.

كل شـيء فيـه قابـل للعـدِّ والإحصـاء. فـإذا عددتـه لـن تجـده إلا.. (**معـدودات**).

ومنـذ أن تولـد، منـذ أولـى صرخـات الـولادة، ويأتـي أحدهـم ليقلـب السـاعة الرمليـة، ويبـدأ الرمـل بالانهمـار مـن الخانـة الزجاجيـة العليـا الممتلئـة إلى الخانـة السـفلى الفارغـة.

ومـا هـي إلا أيـام معـدودات، حتـى تفـرغ الخانـة العليـا، وتمتلـئ السـفلى.

.. وينتهي الأمر.

ويحدث ذلك كله بسرعة جداً. محض أيام معدودات.

رمضان هو تلك (البروفة)، على تلك الأيام المعدودات.

* * *

يا صديق،

وأحياناً أقسو عليك، وأنت تعرف أنٍ ذلك من حرصي عليك، وأنا أعرف أن قسوتي هذه - أحياناً- ليست عقلانية ولا مبررة.. وأعرف أيضاً أنك قد خطوت - في ثمانية أشهر، هي كل رصيدك الآن - خطوات واسعة، جعلت هذه الأشهر الثمانية أشهراً ضوئية خارج مقاييس الزمن التقليدية، وعلى الأخص خارج مفهوم الساعات الرملية - للزمن.

لذلك أقول لك: اعذرني. واغفر لي قسوتي في بعض الأحيان.

أقول لك: اعذرني، فعذري أن إحساسي بالأيام المعدودات يجعلني في أحيان كثيرة نزقاً متوتراً سريع الغضب والتهور.

إنني أشعر بالزمن يتفلت من أصابعي- وأيضاً من أصابعك - وأحس أن وقتي بدأ ينفد - ووقتك أيضاً - وشعوري هذا يشدني من شعري وبقسوة، ويجعلني (أحياناً فقط!) متوتراً مشدوداً.

ووقتي ينفد، ووقتك ينفد، والكلمات تزدحم في فمي، ولا أكاد أجد وقتاً لأسطرها على الورق، ولا الشجاعة لأقولها.

وتتزاحم في فمي كلمات لم أقلها، تكاد تختفي..

ولذلك أتصرف أحياناً بما يبدو من الخارج أنه مزاجية ونزق وسرعة غضب.

عرفت لماذا؟. لأنني مخنوق. لأن الكلمات في فمي تخنقني.

* * *

وحدي في محطة قطار غامضة ونائية ومهجورة .. القطار الأخير المنطلق منها يكاد يرحل، وأحاول اللحاق به، أقفز من دكة المحطة العالية وبين قضبان السكة الحديدية. أركض لألحق به. أكاد ألحق به. لكنه يسرع، ولا أجد فيه مقبضاً تمسك فيه يدي..

وصوت صفيره يكاد يصمُّني، الدخان المنبعث منه يكاد يخنقني..

ويكاد يرحل، وأحاول اللحاق به..

***

وأشعر بنفسي مشدوداً على عقارب ساعة هائلة، تكاتها تكاد تحفر في رأسي، أحسها مثل قنبلة موقوتة محشورة بين تلافيف دماغي. كل لحظة أقول لنفسي: ستنفجر الآن، ستنفجر الآن.

ولم تنفجر بعد. لكنني أعلم أنها ستنفجر في آنٍ محتوم..

نعم. الوقت يدركنا معاً يا صديق. وأنت تدرك ذلك (ربما أكثر مني، لكني أحسه أكثر منك) وبين إدراكك وإحساسي سيصفِّر الحكم معلناً انتهاء المباراة..

نعم. إنها أيام معدودات، مهما طالت سيحدث ذلك.

ولأني أعرف أن ما حدث منذ البداية لم يكن مصادفة ولا اعتباطاً - حاشا لله أن يفعل ذلك - فإني أعلم أن علي

أن أقـول كل مـا علـي أن أقولـه قبـل أن ترحـل – علـي أن أؤشـر هنـا وأن أغرس هنـاك وأتـرك أثـراً هنـا وعلامـةً هنـاك.. وإذا لم يحـدث ذلـك – أعنـي إذا أدركنـي الوقت ومضـى قطار الأيام المعدودات قبـل أن أفعل ذلك، فإني سـأعلك الندم بقية عمري، وسـيظل يعذبنـي ذلك، وسـأظل أتحسـر على كل ذرة رمل فاتتنـي وانهمرت مـن الخانـة العليـا في السـاعة الرمليـة دون أن أحولهـا لتصيـر تربـة خصبـة.

علـيَّ أن أقـول كل مـا علـي أن أقولـه، ليس لـدي خيـار في ذلـك، الأمـر أكبر منـك، بالضبـط كما هـو أكبر مني، وعمـا قليل، بعد أيـام معـدودات، سـيتبخر الشـيء الشـخصي في الأمـر، ويبقـى مـا هـو عـام.. وتصـير هـذه الكلمـات –والأوراق المعـدودات– ليسـت لـك وحدك، وليسـت منـي وحـدي.. وإنما.. مـن آخرين.. ولآخرين.

وكل ذلـك، في أيـام معـدودات؛ علـي أن أسـتغلها أجـود اسـتغلال.

***

يا صديق..

كل حياتنـا هـي أيـام معدودات، ولـو تأملت الآن قصـة حياتك ورحلتـك فيهـا، لوجـدت أن الزمـن يفقد هيبته مثل متسـول يدور علـى الأبـواب، وكان في أيامه عزيز قومه..

لـو تأملت وفتشـت، وقلبت وفكرت، لتعجبت: هـل حقاً انقضت عشـر سـنوات منذ ذلك الحدث؟. هل حقاً انقضى خمسـة عشر عاماً على ما يبدو كأنه البارحة؟ هل حقاً انقضى عشرون عاماً منذ أن كان كذا؟.

كثيراً ما نقول: كأنها البارحة.

وهـذا حـق. إنهـا أيـام معـدودات، والزمـن فيهـا عزيـز قـوم ذلّ..

وبعـد عشـرين عامـاً، ربمـا سـنقول أو سـيقول غيرنـا الشـيء نفسـه علـى هـذا الحاضـر الـذي يبـدو اليـوم طويـلاً عريضـاً..

لكنه أيام معدودات، والزمن فيها .. عزيز قوم ذلّ..

وأقـول لـك: بعـد قليل - أيام معدودات، سـتحزم حقائبك أنت وترحل، وسأحزم أنا أمري أبقى، وسـنحزن - لأيام معدودات - مـن أجل الفراق، ثم سـتأخذنا مطحنـة التفاصيل لأيام معدودة أخرى فننسـى أو نتناسـى وتدفننا حياتنا لأيام معدودات أيضاً، وبعدهـا، وكمـا سـيحدث للجميـع، سـأذهب أنـا، وسـتذهب أنت، وسـيحملوننا كلّاً في تابوتـه، وسـتعلو أسـماؤنا لافتـاتِ النعـي السـوداء المعلقـة لأيام معدودات.

وسـيبكي علينـا أحباؤنـا وأقاربنـا لأيـام معـدودات علـى الأكثر، ثـم سـتأخذهم مطحنة التفاصيل التـي أخذتنا من قبل، وسيجدون في النسيان نعمة تلهيهم عنا، لأيام معدودات، وبينما نحـن هنـاك في قبورنـا، وعندمـا يأتـي الربيـع التـالي، سـينمو

العشب فوق قبورنا، مستفيداً بالتأكيد من المركبات العضوية التي تحللت أعضاؤنا إليها ورؤوسنا..

إنه أمر مرعب بالتأكيد.. وأكثر شيء مرعب فيه أنه حتمي لا فرار منه.

* * *

لكن العشب على القبور لن يكون نهاية المطاف.

ففي النهاية جداً سنتعرض لذلك الاختبار الذي سيبين **هل كانت حياتنا محض سماد عضوي لعشب عابر وتافه، أم أننا استطعنا أن نترك أثراً أفضل - واستطعنا أن ننتج ثماراً مفيدة لنا وللآخرين من بعدنا.**

لذلك أقول لك، **ما دام العشب العابر النامي هناك يترصدنا، فلنحاول أن نثمر شيئاً**، وما دام الوقت يحارب ضدنا، فلنحاول أن نكسبه، ما دمنا نقدر.

وما دامت رؤوسنا ستكون **سماداً عضوياً للعشب التافه النامي فوق القبور**، فلتكن أيضاً بالإضافة إلى ذلك سماداً روحياً للثمر؛ القادم لا محالة.

كيف؟. أقول لك: فليتحمل رأسك رأسي، ولنكسب أنا وأنت في أيام معدودات هذه الأوراق المعدودات. سأذهب أنا، وستذهب أنت، ولكن ستبقى هي، وستتناسل هي. وستتفجر ذات يوم هي.

أقول لك: بيقين تام؛ لأني أعرف **أني أكتبها من أجله، وسأستودعها عنده، وهو جل وعلا لا تضيع الودائع عنده.**

أقول لك بيقين، **في هذه اللحظة ذاتها وأنا أكتب، هناك أطفالٌ يولدون الآن سيقرؤون ما أكتبه ويهزون رؤوسهم موافقين.. نعم لقد حدث ذلك.. لم يضيعها الله.**

وهناك **آخرون، لم يولدوا بعد - ربما منهم أولادك،** سيقرؤون ما أكتب وسيتفاعلون معه. وسيضيء تفاعلهم حياتَهم وحياة الآخرين قربهم..

وكلها أيام معدودات، ويأتي رمضان، فيكون (غير شكل) بالنسبة لهم، وتعلق الصنارة، ويتذوقون الطعم، ويعرفون لذته، فيغترفون منه بقية أيام السنة، ويغطسون في ذلك النهر الجاري، وتعلق قلوبهم كالثريات الساطعة في سقوف الجوامع.. وينتمون لتلك الطبقة العليا، طبقة الـ 1% التي ستزيد بالتدريج.

نعم، كلها أيام معدودات، ويحدث ذلك.

وبعدها، كلها أيام معدودات ويكون ذلك في ميزان حسناتي.

وأيضاً ميزانِ حسناتك ؛ برحمة الله وفضله.

تسألني كيف؟.

لا أعرف التفاصيل. ما المسؤول بأعلم من السائل..

لكني أعدك، عندما نلتقي وإياهم، **أولئك الذين لم يولدوا بعد**، في ذلك اليوم المحتوم الموعود، فإني سأسألهم: ولعلهم سيجيبونني.

عندما يتعلق الأمر بما سيحدث لنا، **الذين لم يولدوا بعد** يعرفون أفضل.

***

أترى؟ لأن الأمور تتزاحم في فمي، فإني وأنا أتحدث عن رمضان نسيت أن أتحدث عن الصيام.

إنها الحقيقة المُرَّة.. كلما قلت شيئاً غابت عني أشياء..

***

وقبل أن أنسى: كل رمضان وأنت بخير..

أعني: كل رمضانٍ ورمضانُ حقاً رمضان، يا صديق.